المعاني المتداولة
في مراثي الصحابة للنبي ﷺ
"دراسة بلاغية نقدية"

إعـــداد

د/ محمد مصطفى محمود ليلة

الأستاذ المساعد في البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بالقاهرة - جـامعـة الأزهـــر

المعاني المتداولة في مراثي الصحابة للنبي ﷺ "دراسة بلاغية نقدية"

محمد مصطفى محمود ليلة
أستاذ مساعد، البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، القاهرة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: m.laila@ut.edu.sa

ملخص البحث:

تقوم هذه الدراسة على تتبع المعاني التي تناولها الصحابة ﷺ في مراثيهم للنبي ﷺ وما تشتمل عليه من أسرار بلاغية وخصائص أسلوبية.

وقد استعرضَت الدراسة كل معنى من المعاني وذلك في جميع المراثي التي صحت نسبتها للصحابة مع دراستها دراسة بلاغية نقدية، وذلك ببيان ما امتازت به من ألوان وخصائص بلاغية تآزرت في بيان وتصوير مرارة فقده ﷺوعظم تلك المصيبة التي حلّت بالصحابة. وقد تعددت المعاني في مراثيهم وجاءت موجزة، متأثرة بأسلوب القرآن الكريم، واضحة المعاني، وكانت عناصر الطبيعة مكوناً رئيساً في رسم صورتها، وقلّت فيها الأساليب الإنشائية ومجيء الخبر مؤكداً، فمشاعرهم ملتهبة وحزنهم واضح، وختمت معظمها بالدعاء له ليظل ذكره باقياً.

الكلمات المفتاحية:

المعاني، المتداولة، مراثي، الصحابة، النبي.

The meanings circulated in the Lamentations of the Companions of the Prophet "a critical rhetorical study"

mohammed mustafa mahmud layla
Assistant Professor, Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Boys, Cairo, Al-Azhar University, Egypt.
m.laila@ut.edu.sa

Abstract: This study is based on tracking the meanings of the companions - may Allah be pleased with them - in their lamentations of the Prophet - peace be upon him - and the rhetorical secrets and stylistic characteristics.

The study reviewed all the meanings in all the lamentations that were attributed to the Sahaba with a critical rhetorical study، by showing the colors and characteristics of rhetorical synergies in a statement and depicting the bitterness lost - peace be upon him - and the bone of that calamity that befall the Sahaba.

The meanings were numerous in their lamentations and came brief، influenced by the style of the Koran، clear meanings، and elements of nature was a major component in the drawing of its image، and reduced the structural methods and the coming of the news، stressing that their feelings are inflamed and sad and clear، and concluded most of them pray for him to remain mentioned.

Kay words: almaeani, jumlat, marathiun, alsahhabat, alnabiu

المقدمة

الحمد لله المحي المميت المبدئ المعيد، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلقد كانت وفاة النبي ﷺ أعظم حدث مر بالمسلمين فأذهل عقولهم، وزلزل أركانهم، وأفقدهم الوعي والفكر والفهم، فلم يصب المسلمون بمصيبة بمثل ما أصيبوا بموته ﷺ فكادت الجمادات تتصدع من ألم مفارقته، فكيف بقلوب المؤمنين! وقد أصيبوا بأمر عظيم ألا وهو انقطاع الوحي من السماء، ولذا اضطرب الصحابة –رضوان الله عليهم– اضطراباً شديداً لفقده، فهم أول من ابتلي بموته ﷺ فكانوا أول من رثاه فكانت مصيبتهم أوجع في نفوسهم وآلم، فقد كان النبي ﷺ يغدو بين ظهرانيهم ثم لم يَعُد، فأظلمت الدنيا في وجههم، فقد غاب نوره ﷺ فانفجرت مشاعرهم، وفاضت ألسنتهم بأصدق وأعذب الكلمات في رثائه، وهم الذين لم يكونوا ليفكّروا يوماً في رحيله وموته، وكانت هذه المراثي تعبيراً مباشراً عمّا يكنّه الصحابة من حب للنبي ﷺ وتعلق به. وقد جاء رثاؤهم مشتملاً على كثير من المعاني التي تحوي كثيراً من الخصائص الفنية والأسلوبية التي أكسبتها جمالاً وقوة، وأضفت عليها الطابع الفني الذي تميزت به. ولذا كان هذا البحث " **المعاني المتداولة في مراثي الصحابة للنبي ﷺ**" دراسة بلاغية نقدية.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المراثي التي صحت نسبتها للصحابة دون الصحابيات لكثرتها، وذلك من خلال دراسة بعنوان: (المراثي النبوية في أشعار الصحابة) حيث بيَّن الباحث الغاية منها فيقول: " وإن الذي يصبو إليه البحث التوثيق؛ لأنه قد وقع في هذه المراثي خلط شديد، ونحلٌ وزيادةٌ وخطأ نسبةٍ، جرَّ إلى سوء حكم على بعض الشعراء، وكان سبباً من أسباب دفعت

إلى توهين الشعر الذي أُنشد في ذلك العصر، عصر النبوة، والدراسة تريد بالتوثيق تنقية أشعار المراثي النبوية من ذلك كله." [1]

وقد قام بتخريجها من مظانّها، منتهجاً في توثيقها المنهج التاريخي القائم على التتبع والاستقراء، ومن ثمَّ الحكم عليها. وقصدت بالمرثية كل شعر قيل حزناً لوفاة النبي ﷺ.

وقد انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة.

أما **المقدمة:** ففيها أهميته، وخطته، والمنهج الذي تسير عليه الدراسة.

التمهيد: فيشتمل على التعريف بالمراثي والصحابي.

المبحث الأول: بكاء الأرض والسماء لموته ﷺ.

المبحث الثاني: فداؤه بالأنفس والأموال والأولاد.

المبحث الثالث: تمني الموت قبله.

المبحث الرابع: إظهار المنافقين والكفار الشماتة بعد موته.

المبحث الخامس: بكاء الصحابة عليه وعدم استحقاق البكاء على أحد بعده.

المبحث السادس: أثر فجيعة موته على الصحابة.

وأما **الخاتمة:** ففيها أهم نتائج البحث، ثم أعقبتها بفهرس للمراجع وآخر لموضوعات البحث.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي، فقمت بجمع الأبيات التي تحدثت عن معنى معين من المعاني التي تناولتها الصحابة في مراثيهم، ثم قمت ببيانها وتحليلها ونقدها – ما أمكن– وبيان ما امتازت به من ألوان وخصائص بلاغية تآزرت في بيان وتصوير مرارة الفقد وعظم تلك المصيبة التي حلّت بهم.

---

١ – المراثي النبوية في أشعار الصحابة:٦، محمد شمس عقاب، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في اختيار الموضوع وفي دراسته، وفي سلامة نتائجه، كما أسأله أن يغفر لي الزلات، ويتجاوز عن العثرات، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وينفعني به، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

التمهيد

المراثي والمعاني المتداولة

ويشتمل على:

- **التعريف بالمراثي.**
- **التعريف بالصحابي.**
- **المعاني المتداولة في مراثي الصحابة.**

التعريف بالمراثي:

يقول ابن فارس: (رَثَى) الرَّاءُ وَالثَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أُصَيْلٌ عَلَى رِقَّةٍ وَإِشْفَاقٍ. يُقَالُ رَثَيْتُ لِفُلَانٍ: رَقَقْتُ. وَمِنَ الْبَابِ قَوْلُهُمْ رَثَى الْمَيِّتَ بِشِعْرٍ.[1] وفي اللسان:" رَثَى فُلَانٌ فُلَانًا يَرْثِيهِ رَثْياً ومَرْثِيَةً إذا بكاهُ بَعْدَ مَوته.. فإن مدَحَه بَعْدَ مَوْتِهِ قِيلَ رَثَّاهُ يُرَثِّيه تَرْثِيَةً. ورَثَيْت الميّتَ رَثْياً ورِثَاءً ومَرْثَاةً ومَرْثِيَةً ورَثَّيْته: مَدَحْته بَعْدَ الْمَوْتِ وبَكَيْته.. ورَثَوْت الْمَيِّتَ أَيضاً إذا بكَيْته وعدَّدت مَحَاسِنَهُ، وَكَذَلِكَ إذا نظَمْت فِيهِ شِعْرًا.. وَفِي الْحَدِيثِ:

أَنّ أُخْتَ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ بَعَثَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ فِطْرِهِ بقَدَحِ لَبَنٍ وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِذَلِكَ اللَّبَنِ مُرْثِيَةً لَكَ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَطُولِ النَّهَارِ،أَي: تَوَجُّعاً لكَ وإِشْفاقاً، مِنْ رَثَى لَهُ إِذا رَقّ وَتَوَجَّعَ" [2].

---

١ – معجم مقاييس اللغة: (رثى)، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢ – لسان العرب: (رثى)، لابن منظور، تح/ عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، ط. دار المعارف بالقاهرة. والحديث رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأطعمة:٤/١٤٠، رقم: (٧١٥٩).

وفي أساس البلاغة: " رثيت الميت بالشعر، وقلت فيه مرثية ومراثي. والنائحة تترثى الميت: تترحم عليه وتندبه." [١]

فالمادة تدور حول بكاء الميت وتعداد محاسنه والتوجع والإشفاق، وإبداء مظاهر الحزن عليه ويأتي البكاء في مقدمتها، ورثاء الميت والبكاء عليه قديم قدم البشرية كلها، فكل حيّ يجد أمامه هذا المصير المحتوم وهو الموت.. وعليه فالمراد بالمرثية كل شعر قيل حزناً وتفجعاً لوفاة النبي ﷺ.

التعريف بالصحابي:

اختلف في تعريف الصحابي على أقوال؛ لاختلاف غرض كل صاحب قول من التعريف وذلك عند الأصوليين والمحدثين وغيرهم:

فقيل: الصحابي من صحب النبيﷺ أو رآه من المسلمين بحيث يميز ما رآه، ومات على ذلك. ومنهم من بالغ فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحبه الصحبة العرفية. ولا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبيﷺ سنة فصاعداً، أو غزا معه غزوة فصاعداً. ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً، ومنهم من لم يشترط.[٢]

---

١ – أساس البلاغة: (رثى)، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٢ – ينظر الإصابة في تمييز الصحابة:٨/١ وما بعدها. لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ – ١٤١٥ هـ.
والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية:٦٩٣/٢. المؤلف: أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة– مصر.

فالصحابي من لقي النبيّ ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه ممن طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى.

ومن المحدِّثين وأهل التاريخ من ذكر أن الصحابي هو من أدرك زمن النبيِّ ﷺ وهو مسلم وإن لم يره. فأرادوا بذلك إثبات هذا الشرف لمن أسلم في حياة النبي واتبع دينه، وربما كاتبه النبي أو دعا له أو صلّى عليه أو أقرأه السلام، أو أمره بأمر فأجابه إليه، وربما أعدّ بعضهم راحلته للقائه ﷺ ولكن سبقه الموت إليه فحزن عليه ورثاه كعبد الله بن سلمة الهمذاني ﷺ فهذا وغيره يدخل في الصحابة ولو من قبيل العموم في الاصطلاح، وعلى ذلك تسير الدراسة في تعريف الصحابي؛ لأن غايتها ليست دراسة الحديث. وعلى كلٍ فإن عدد صحابة المراثي الذين عاشوا في عهد النبيﷺ ولم يروه قليلٌ، وذلك مقارنة بمن رآه وآمن به ومات على ذلك..[1]

المعاني المتداولة في مراثي الصحابة.

كان لموت النبي ﷺ عظيم الأثر في الصحابة ﷺ وفي جميع المسلمين، فقد اشتد بهم الأسى والألم على فراقه، فقد كان أفصح العرب وأشرفهم، وهاديهم ونورهم، وكان أمنهم ومأمنهم، وبموته انقطعت السماء عن الأرض، ولذا اشتد حزنهم عليه فبكوه ورثوه في كثير من أشعارهم، وقد تناولوا كثيراً من المعاني في رثائهم للنبي ﷺ، فتحدثوا عن بكاء الأرض والسماء على فراقه، وعن فدائه بالنفس والمال والولد، وعن تمني الموت قبله حتى لا يشعرون بألم فقده، فلا قيمة للحياة بعده، وتحدثوا عن بكاء العين عليه وعدم استحقاق البكاء

---

١ – ينظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب:١/١٤٥، لابن عبد البر، ت/علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة. والاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء:٢/٦٩، لسليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو الربيع (المتوفى: ٦٣٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ. والمراثي النبوية في أشعار الصحابة:٢٣.

على أحد بعده، وتحدثوا عن أثر تلك الفجيعة عليهم وهول ما وجدوه، وتحدثوا عن الذين ارتدوا بعد موته وما حدث معهم بسبب ردتهم وكفرهم، وتحدثوا عن إظهار المنافقين والكافرين الشماتة للمسلمين بسبب موت النبي ﷺ، وغير ذلك من المعاني والتي سيدور هذا البحث حول بيان سماتها البلاغية.

المبحث الأول:

بكاء الأرض و السماء لموته ﷺ

من المعاني التي تناولها الصحابة ﷺ في رثائهم النبي ﷺ بكاء الأرض والسماء عليه لفضله ومنزلته عند ربه، وقد ورد هذا المعني في سبعة مواضع تقريباً، وقد عاب الله على بني إسرائيل فلم تكن لهم أعمال صالحة تصعد السماء فتبكي على فقدهم، ولا عبدوا الله في الأرض فتبكي عند موتهم؛ وذلك بقوله: "**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**" الدخان:٢٩.

ومن ذلك قول عَامر بن الطُّفَيْل الأَزْدِيّ في مطلع مرثيته: [١]

بَكَتِ الأَرْضُ والسّمَاءُ عَلَى النّورِ الّذِي كَانَ لِلعِبَادِ سِــرَاجَا
مَنْ هُدِيْنَا بِهِ إِلَى سُبُلِ الحَــقِّ وَكُــنَّا لا نَعْـرِفُ المِنْهَاجَا
وَتَّرَ الدَّهْرُ قَوْسَهُ فَرَمَى القَلْـــــبَ فَلَمْ يُخْطِهِ فَصِرْنَا هَمَاجَا [٢]

فلا يخفى ما لمطلع القصيدة من أهمية عظمى في نفوس المخاطبين فهي أول ما يقرع الآذان ومن خلالها يدركون ما بعدها، ومن شأن الابتداء إذا كان حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً أن يكون داعيةً إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ومن الطبعي أن يكون المطلع ملائماً للجوّ العاطفي الذي يعيشه الشاعر؛ لأن ما يناسب الرثاء هو ذكر البكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتت الآلاف .. وغير ذلك.[٣] فبدأ بذكر البكاء وذلك في قوله: (**بَكَتِ الأَرْضُ**

---

١ – كان وافد قومه والقائم فيهم في زمن الردة يحرضهم على الإسلام، وله مرثية في النبي ﷺ منها هذه الأبيات. ينظر الإصابة في تمييز الصحابة:٤٧٣/٣.

٢ – وتر الدهر قوسه: شدّها، و(الْهَمَجُ) بِفَتْحَتَيْنِ جَمْعُ (هَمَجَةٍ) وَهِيَ ذُبَابٌ صَغِيرٌ كَالْبَعُوضِ يَسْقُطُ عَلَى وُجُوهِ الْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ وَأَعْيُنِهَا. والهمج: رذال الناس. لسان العرب: (وتر، همج).

٣ – ينظر الصناعتين: ٤٣٧ وما بعدها، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ. وعيار=

والسّـمَاءُ عَلَـى النّـورِ) وقد استعان الشاعر بالفنون البيانية بقصد التأثير واستجلاء المعاني وتقريبها للسامع، وإضفاء مسحة من الجمال عليها، فقد استعان بالاستعارة في توضيح تلك الصورة فجعل للأرض والسماء عيوناً تبكي على فراق النبي ﷺ فلم يقتصر البكاء عليهم حزناً وألماً لفقده، بل عمّ حتى شمل كل من في الأرض والسماء ساعده الطباق بينهما، وفي جعل البكاء للأرض والسماء دلالة على عظم المصاب، ورفعة وعلو شأن النبي ﷺ وفي التعبير بالماضي في قوله: **(بَكَت)** دلالة على تحقق البكاء عليه، وجاء هذا الخبر خالياً من التوكيد لأن حزنهم وعظم مصابهم واضح وظاهر للعيان لا يحتاج توكيداً. وشبهه بالنور، فهو الذي أخرجهم من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهداية والإسلام، وهو الذي أضاء الطريق للسالكين، وفي تشبيهه بالنور تأثر بما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ" المائدة: ١٥. وكذا في تشبيهه بالسراج في قوله: **(الّـذِي كَـانَ لِلعِبَـادِ سِـرَاجَا)** حيث قال الله تعالى مخاطباً نبيه: "**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**" الأحزاب:٤٥،٤٦. فهو سراج أخرج النَّاس من ظلمات الشِّرك إلى نور التَّوحيد، ومن الضَّلال إلى الهدى، ومن الظُّلمِ إلى العدل، وهي أوصاف استدعاها الشاعر من كتاب الله تعالى مستحضراً فيها حسّه الديني.

ويُكنّي عنه في البيت الثاني بقوله: **(مَنْ هُدِيْنَا بِـهِ إِلَـى سُبُلِ الحَـقّ وَكُـنَّا لا نَعْـرِفُ المِنْهَاجَا)** فقد أرسله ربه هادياً الخلق إلى عبادة الحق، فبين كمال المِنّة من الله عليهم فقد أرسله لهم مبيناً الطريق القويم لهم فساروا عليه واهتدوا بعد ضلال.

=الشعر:٢٠٤. لمحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي، أبو الحسن (المتوفى: ٣٢٢هـ)، ت: عبد العزيز بن ناصر المانع، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة.

وكنّى عن شدة الخطب الذي ألمّ بهم وذلك بفقد النبي ﷺ بقوله: **(وَتَّرَ الدَّهْرُ قَوْسَهُ فَرَمَى القَلْبَ)**، كناية عن الشدة التي لحقت به، فالدهر قد شدّ قوسه عليه بوفاة النبيﷺ ورماه بسهم أصاب سويداء قلبه، كما أن النبي ﷺ من الأمة كالقلب من الجسد إذا أصيب تهاوت بقية الأعضاء، قوّى ذلك تضعيف الفعل **(وتّر)**.

وفي إسناد **(الوَتر والرّمي)** للدهر مجاز عقلي أكّد شدة وقع المصيبة عليهم، وإصابتها موطن القلب لهم، فأذهبت عقولهم، فضلاً عن ذلك فهذه الأساليب المجازية (تثير في النفس خيالاً طريفاً، من حيث نرى فيها الأحداث، والأفعال مضافة إلى غير فاعليها المألوفة في الوجود... وهذا يمتعنا بطرف من الخيال)[1]. وقد زاد توكيد ذلك التعبير بـ **(فَلَمْ يُخْطِه)** ولذا صاروا كالهماج **(فَصِرْنَا هَمَاجَا)** وفي تشبيههم بالهماج دلالة على شدة اختلاطهم واضطرابهم بسبب وفاة النبي ﷺ وفعل الصيرورة **(صِرْنا)** يدل على تحولهم من حال طيبة مستقرة منتظمة يوم أن كان النبيﷺ بين ظهرانيهم إلى حالة ضعيفة هشة مبعثرة بعد وفاته وذلك مما يظهر جزع الشاعر وألمه بسبب وفاة النبي ﷺ واستعمال (الفاء) وتكرارها في البيت الأخير يومئ إلى شدة وقع هذه الفاجعة على نفوسهم، وتتابع آثارها عليهم.

وممن تناول هذا المعنى –أيضاً– سواد بن قارب [2] في قوله:

---

١ – خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني: ١٤٦،١٤٥، د/ محمد محمد أبو موسى، ط٧، الناشر/ مكتبة وهبة، القاهرة.

٢ – هو سواد بن قارب السدوسي وقيل: الأزدي، سكن البادية: كان أحد كهان الجاهلية، فأسلم، له صحبة وكان شاعراً،عاش إلى خِلافَةِ عمر وماتَ بالبصرةِ عام ١٥هـ . ينظر أسد الغابة:٤٩٢/١. لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، ت: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م. ومعرفة الصحابة:١٤٠٤/٣. لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن =

فَبَكَتْ عَلَيْهِ أَرْضُنَا وَسَمَاؤُنَا ... وَتَصَدّعَتْ وَجْدًا بِهِ الْأَكْبَادُ

قَــلّ الْمَـتَاعُ بِهِ، وَكَانَ عِيَانُهُ ... حُلْمًا تَضَمّنَ سَكَرَتَيْهِ رُقَادُ

كَانَ الْعِيَانُ هُوَ الطّرِيفَ وَحُزْنُهُ ... بَاقٍ لَعَمْرُك فِي النّفُوسِ تِلَادُ (١)

فهو يصور شدة ألمهم وحزنهم على فراق النبي بتلك الصورة المجازية في قوله: **(فَبَكَتْ عَلَيْهِ أَرْضُنَا وَسَمَاؤُنَا وَتَصَدّعَتْ وَجْدًا بِهِ الْأَكْبَادُ)** فتبكيه الأرض والسماء، وتتشقق حزناً وألماً عليه الأكباد، فبفقده قلّ الخير والنماء، وقد صار لقياه حلماً بعيد المنال، فموته أذهب عقولهم وصار الحزن باقياً في القلوب متوارثاً بعد وفاته ﷺ.

ويصور شدة الألم الذي حلّ بهم بهذه الاستعارة **(وَتَصَدّعَتْ وَجْدًا بِهِ الْأَكْبَادُ)** حيث شبه الأكباد ببناء شامخ قوي متماسك ولكنه بمجرد موت النبي ﷺ أصابه التصدع والسقوط مما يدل على عظم الصدمة التي أصيبوا بها وشدتها، قوّى ذلك تقديم قوله: **(وَجْدًا بِهِ)** على الأكباد. وقد أبرزت الاستعارة المعنى وأوضحته وجعلته في صورة المحسوس ليكون أقرب للإدراك، وتضعيف الصيغة في قوله: **(تَصَدّعَتْ)** يدلّ على المبالغة في بيان أثر وقع تلك المصيبة عليهم وتحققها وتمكنها منهم. ولما كان حزنهم وعظم مصابهم واضحاً وظاهراً للعيان تصدعت منه الأكباد لم يحتج الخبر توكيداً.

وإسناد التصدع للأكباد أقوى وأبلغ وأظهر في الدلالة على شدة المرارة والحزن من إسناده للقلوب، فإذا كانت القلوب مستودع الفرح والحزن، والألم والسرور، والهمّ والكرب والضيق، ولم يسند الشاعر التصدّع إليها وأسنده

=إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، ت: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، ط١ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م. والأبيات في الروض الأنف:٢/٢١٢. والاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله:٢/٧٠.

١ - التِلادُ والتالِد كلُّ مالٍ قديم وغيره يُورَث عن الآباءِ، وهو نَقيض الطارِف والطَريف. ينظر تاج العروس من جواهر القاموس:٧/٤٥٩. (تلد) .

للأكباد التي تجاورها فهذا يدل على أن التصدع قد تعدى القلوب إلى الأكباد التي تجاورها، وإذا كانت الأكباد قد تصدّعت فكيف بالقلوب؟!

وجمع الأكباد يشير إلى تأثر الجميع بموته ﷺ ولم يقتصر ذلك على الشاعر. وبيّن قِصَر حياته بينهم وإفادتهم منه مقارنة بطول المدة بعد وفاته وعظم مصابهم، فقد كانت حياته بمثابة حلم، وكم يبقى ويستمر؟! وقد أكد هذا المعنى الطباق بين **(طريف وتلاد)** قوّاه بالقسم في قوله: **(لَعَمْرُك)**.

موازنة:

اشترك سواد بن قارب ﷺ مع قول عَامر بن الطُّفَيْل السابق في تصوير بكاء الأرض والسماء عليه ﷺ إلا أن تعريف الأرض والسماء بـ "**أل**" التي تفيد الجنس في قول عامر بن الطفيل: **بَكَتِ الأَرْضُ والسّمَاءُ عَلَى النّورِ**. يجعله يتفوق على (سواد بن قارب) في المعنى حيث عرفهما بالإضافة إلى ضميرهم **(أَرْضُنَا وَسَمَاؤُنَا)** فجعل البكاء مقتصراً على الأرض التي تحملهم والسماء التي تظلهم، وهذا بخلاف تعريفهما بـ "**أل**" فالبكاء يعم ويشمل كل السموات والأرض، وهذا أبلغ في بيان عظم المصاب وعلوّ ورفعة شأن من يبكيان عليه.

وممن تناول هذا المعنى –أيضاً– عبد الحارث بن أنس بن الديان [1] **في قوله:**

لَعَمري لَئِن كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيهِ سَلَامُ اللهِ – أَودَى بِهِ القَدَر
لَقَد كَسَفَت شَمْسُ النَّهَارِ لِفَقْدِهِ وَبَكَت عَلَيْهِ الأَرضُ وَانكَسَفَ القَمَر

---

١ – عبد الحارث بن أنس بن الديان كان ممن ثبت أهل نجران على الإسلام في الردة، وكان سيدا فيهم فقال: يا أهل نجران، من أمركم بالثبات على هذا الدين فقد نصحكم، ومن أمركم أن تزيغوا فقد غشّكم ... إلى أن قال: وإنما كان نبي الله عارية بين أظهركم، فأتى عليه أجله، وبقي الكتاب الّذي جاء به، فأمره أمر ونهيه نهي إلى يوم القيامة، وأنشد أبياتا منها هذه الأبيات.. ينظر أسد الغابة:٤١٧/٣، والإصابة في تمييز الصحابة:٢٣٦/٤.

وَبَكَتْهُ آفَـاقُ السَّـمَاءِ وَمَا لَهَا وَلِلأَرْضِ شَجْـوٌ غَيْرُ ذَاكَ وَلَا عِبَرَ[1]

حيث تعددت عناصر التأكيد في هذه الأبيات من خلال القسم والشرط **(لَعَـمري لَئِن..)** في مطلع البيت الأول، و**(لَقَد)** في مطلع البيت الثاني وكذا الطباق، فالصحابي هنا يؤكد بكاء الأرض والسماء عليه وكسوف الشمس والقمر لفقده، مما يبعث على التفجع والبكاء عليه بالدماء. فالسماء والأرض تبكيان على الرسول ﷺ وتشاركان المسلمين في أحزانهم، وكسف الشمس وانكساف القمر تعبير عن عظم شأن وفداحة المصاب. وبهذا القسم والشرط في قوله: **(لَعَمري لَئِن كَانَ النَّبِيُّ مُحمَّدٌ عَلَيهِ سَلَامُ اللهِ أَودَى بِهِ القَدَر)** يؤكد على عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين، فهو وسيلة من وسائل تأكيد الكلام، وجاء الاعتراض بالدعاء في قوله: **(عَلَيـهِ سَـلَامُ اللهِ)** وقُصِر فيه السلام والمحبة والرضى من الله تعالى على رسوله وفي ذلك بيان لعظم منزلته ﷺ وتقديره، وجاء ذهاب ضوء الشمس والقمر وبكاء الأرض عليه والسماء وما فيها مبيناً عظم المصيبة التي حلّت بالمسلمين، ومدى حسرتهم على من فقدوه، فقد انقطع الوحي من السماء بموته فحق لها ومن فيها البكاء عليه ﷺ بكاء بلا **(عِبَر)** وهو من أشد أنواع البكاء، حينما يبكي الإنسان ولا يجد دمعة تخفف عنه ما يجده، وجاء التعبير بالماضي **(كَسَفَت، بَكَت، انكَسَفَ)** دالاً على تحقق ذلك منهم لفقد عزيز عليهم.

ويلحظ أن كسوف الشمس والقمر لموت النبي ﷺ من المعاني التي زادها مع بكاء الأرض والسماء عليه، وهذا من المعاني الجاهلية التي قد بقيت رواسبها في شعر الرثاء – وإن كانت قليلة– ومن ذلك قول الخنساء حيث تصف مروءة صخر وشرفه وشجاعته وصفاً حسناً، وتعقد مشابهة بين صخر وبين الشمس، فوجهه أبيض يشع نوراً كالشمس، لما قدمه من خير لقومه،

---

١ – ينظر الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله:٢/٧١.

وتصف تغيراً غريباً حصل لكوكب الشمس بسبب موت أخيها، لقد كسفت الشمس، وغار القمر فتقول:

يا عَينِ جودي بالدّموعِ على الفتى القرمِ الأغـــر
أبْيَـــضُ أبْلَـــجُ وَجْـــهُهُ كالشّمسِ في خَيرِ البَشَرْ
والشَّمسُ كاسفةٌ لمهلكهِ ومَا اتّسَـــقَ القَمَـــــــرْ (١)

ويقول أوس بن حجر – أيضاً– يرثي فضالة بن كلدة:

ألم تُكسَفِ الشمسُ وَالبدْرُ وَالْـــــكَوَاكِبُ للْجَبَلِ الْوَاجِبِ
لفقـدِ فضـالَةَ لا تستوي الـــــفُقـودُ ولا خـلّةُ الذّاهـــبِ
أَلَهْفاً على حُسْنِ أخْلاقِهِ عَلى الجَابِرِ العَظْمِ وَالحارِبِ (٢)

فيتساءل أوس بن حجر في رثائه عن سبب كسوف الشمس والكواكب، ويقول: لأمر عظيم حدث مثل هذا الكسوف، ليكون بذلك قد شمل الحزن الأرض وعمّ السماء، ولتعلن الشمس حدادها على موت صاحبه.

فكسوف الشمس والقمر لفقدان شخص من معاني الجاهلية التي كرهها الإسلام، ولعله يريد المبالغة في بيان حجم المصيبة وألم الفقد الذي أحلّ بهم بموت النبي ﷺ فجعل كل المخلوقات تبكيه ويتغير حالها ويذهب ضوؤها حزناً على فراقه.

١– ديوان الباكيتين الخنساء وليلى الأخيلية: ٨٩، شرح: د. يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

٢ – ينظر سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ٤٦٦/١، المؤلف: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧هـ)، ت: عبد العزيز الميمني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. وتاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٢٦١. المؤلف: دكتور إحسان عباس (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٨٣م.

وممن تناول هذا المعنى –أيضاً– عبد الله بن سلمة الهمداني[1] في قوله:

مَن بَكَتْهُ السَّمَاءُ تُسْعِدُهَا الأَر ضُ وَبَكَت بَعْد الْقِفَارِ الْبِحَارُ
وَسَرَافِيلُ قَد بَكاهُ وَجِبرِيـــــــــلُ وَمِيكَالُ وَالْمَلَأُ الأَطْهَارُ
يَا لَهَا كِلمَة يَضِيق بِهَا الْخَلـــــــــقُ أَتَانَا بِنَقْلِهَا السُّفَّارُ[2]
قِيلَ مَاتَ النَّبِيُّ فانصدعَ القَلـــبُ وَشَابَت مِن هَوْلِهَا الْأَشْعَارُ
فَلَـئِنْ جَـنَتِ المَنُونُ عَلَيْهِ مَا لَـنَا فِي الدِّيَارِ بَعْدُ قَرَارُ
فَعَلَيْهِ السَّلَامُ مَا هَبَّتِ الرِّيـــــــحُ وَمَدَّتْ جُنْحَ الدُّجَى أَنْوَارُ

فهذا الصحابي في مرثيته بهذا الأسلوب المجازي البديع والتقابل العجيب جعل كل شيء يبكيه ﷺ السماء وأهلها والأرض ومن عليها، والأماكن التي لا زرع فيها ولا ماء وكذا البحار وما فيها، فالكون كله يبكيه لمنزلته ولعظم المصاب الذي حلّ بهم.

فبكاه كل من في السماء، حيث بكاه إسرافيل وجبريل وميكائيل أكد ذلك التعبير بـ **(قَد بَكاهُ)**، وفي عطف العام على الخاص في قوله: **(وَسَرَافِيلُ قَد بَكاهُ وَجِبرِيـلُ وَمِيكَالُ وَالْمَلَأ الأَطْهَارُ)** بيان لعلوّ منزلتهم ومنزلة من يبكونه. وهو من المعاني التي أضافها على بكاء السماء والأرض عليه، حيث فصّل وجعل الملائكة – أيضاً– تبكي على فراقه لشدة وقع هذه المصيبة عليه.

---

١ – صحابي وشاعر من همدان، أرسلته همدان ليبايع أبا بكر الصديق ويعلن البيعة له والولاء من همدان، فقال: يا معشر قريش، إنكم لم تصابوا بالنبيّ ﷺ، دون سائر العرب، لأنه لم يكن لأحد دون أحد، غير أنا معترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم، وللأنصار بفضل نصرتهم، شارك شعراء همدان همّهم وكربهم يوم وفاة النبي ﷺ فرثاه رثاءً أشجى كل من سمعه وبيّن فيه أن فقد الرسول ضرٌ أصاب الناس جميعاً وليس قريش وحدها أو الأنصار دون غيرهم، وكان مما قاله هذه الأبيات. ينظر الإصابة:٥/٧١، والاكتفاء:٢/٦٩.

٢ – كِلْمَة: بكسر فسكون (لغة تميمية)، والسُّفَّارُ: المسافرون. ينظر اللسان: (كلم، سفر).

ويبين أثر الصدمة التي أحلت به عندما نقل إليه المسافرون نبأ وفاة النبي ﷺ فيقول: **(يَا لَهَا كِلمَة يَضِيق بِهَا الْحَلقُ أَتَانَا بِنَقْلِهَا السُّفَّارُ)** حيث جاء تعجبه دالاً على شدة المرارة والألم والحزن الذي أحاط به، ولم يجد من الكلام ما يترجم به حزنه، ويبين ما تكنه نفسه، فقد ضاق حلقه، ومن ثَمَّ كان تعجبه.

والموقف لا يحتاج إطناباً في الحديث فالمقام مقام حزن وألم، وخبر وفاة النبي الذي تناقله المسافرون كان كالصاعقة عليهم، فكان كلاماً وليس **(كلمة)** حيث عبر بالكلمة وأراد الكلام على طريقة المجاز المرسل؛ لشدة وقعها وعظم ألمها، أكّد ذلك تنكيرها ووصفها بقوله: **يَضِيق بِهَا الْحَلقُ.**

وفي قوله: **(كلمة)** إجمال جاء تفصيله وبيان وقعه وأثره في قوله: **(قِيلَ مَاتَ النَّبِيُّ فانصدعَ القَلبُ وَشَابَت مِن هَوْلِهَا الْأَشْعَارُ)** فكان تأثير ذلك داخلياً وخارجياً، حيث بيَّن الأثر الداخلي بقوله: **(فانصدعَ القَلبُ)** فصور شدة الألم والحزن الذي حلّ بهم بهذه الاستعارة حيث شبهه وأثره في قلوبهم بالصدع على طريق الاستعارة التبعية، والتي أبرزت المعنى وأوضحته وجعلته في صورة المحسوس ليكون أقرب للإدراك، وبيَّن الأثر الخارجي بقوله: **(وَشَابَت مِن هَوْلِهَا الْأَشْعَارُ)** كناية عن شدة الألم والمحنة التي أصابتهم، وقد صورتها الكناية في صورة الشيء المشاهد للعيان. وقد صور الأشعار بصورة الشيء الذي يشيب حيث عجزت الكلمات عن رثائه وبكائه ﷺ.

وكأن الشاعر قد عزّ عليه أن يموت النبي ﷺ كما يموت الواحد من الناس فبنى الفعل للمجهول في قوله: **(قِيلَ: مَاتَ النَّبِيُّ)** فهم يقولون وليس هذا قوله، وكأنه يبرأ من ذلك، وصوّر المنون في صورة الشخص المعتدي بقوله: **(جَنَتِ المَنُونُ عَلَيْهِ)** وكأنه يقول إن المنون فعلت فعلاً نكرهه ونبغضه وهو موت النبي ﷺ حيث جنت عليه، ومن فرط حبهم له وعظم منزلته في نفوسهم لا يريدون موته.

وختم مرثيته بهذا الدعاء: **(فَعَلَيْهِ السَّلَامُ مَا هَبَّتِ الرِّيحُ وَمَدَّتْ جُنْحَ الدُّجَى أَنْوَارُ)** إلا أن ابن رشيق العيد يكره هذا الختام فيقول: "وقد كره الحذاق

من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء لأنه من عمل أهل الضعف، إلا للملوك.."[1] للملوك.."[1] والرسول ﷺ في نفوس أصحابه والمسلمين أعز وأرفع من كل الملوك، ولن يوفيه حقه كاملاً إلا الله – تعالى، فهو وحده القادر عليه، وما ختم المرثية بالدعاء له إلا ليظل ذكره ﷺ باقياً في أذهان الناس وعلى ألسنتهم فيصلّون عليه ويدعون له.

وممن تناول هذا المعنى –أيضاً– مُرَّان بن عُمَيرَة الهمداني[2] في قوله:

بَكَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَيْه وَبَكَاهُ خَلِيلُهُ جِبْرِيلُ
كَانَ فينا هُوَ الدَّليلُ عَلَيهِ كُلّ هَذا دَليلُهُ التَّنزيلُ
يَا لَهَا رَحْمَةٌ أُصِيبَ بِهَا النَّا سُ تَوَلَّتْ وَحَانَ مِنْهَا الرَّحِيلُ
جَدَعَتْ قَوْمِيَ الْأَنُوفَ وَأَجْرَت دَمْعَ عَيْنٍ فَلِلْجُفُونِ هُمُولُ
لَيْسَ لِلنَّاسِ يَا إِمَامٌ مِنَ الْأَمْرِ فَتيل وَأَيْنَ مِنْكَ الْفَتِيلُ[3]
إِنَّمَا الْأَمْرُ لِلَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَفَى خَلْقِهِ عَلَيْهِ دَليلُ

١–العمدة:٧٨ . المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م.

٢ – صحابي، كاتب النبي ﷺ والده، وأحد أهم شعراء همدان في الإسلام، وأحد ملوكهم في اليمن وقف في قومه خطيباً يوم وفاة الرسول وقمع فتنة أهل الشغب فيهم ورثى النبي ومثّل في رثائه له الكثير من المعاني الإسلامية الخالصة ومنها هذه الأبيات. ينظر الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير:٤٨/١٠،للحسن بن أحمد الهمداني، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء،١٤٢٥هـ. ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة:٢٣١. جمعها/محمد حميد الله،دار النفائس، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ.

٣ – يريد بـ الإمام المهاجر بن أبي ألأمية المخزومي، فقد كان أميراً عليهم مما يلي صنعاء، أمّره الرسول ﷺ. ينظر منح المدح:١٠. لابن سيد الناس محمد بن محمد بن عبد الله، ت/ عفت وصال حمزة، دار الفكر، دمشق،ط١٤١٣١،هـ. والفتيل: ما فتلته بين أصابعك من الوسخ، وقيل هو ما يكون في شق النواة. ويضرب مثلاً للشيء التافه الحقير القليل.. ينظر تاج العروس: (فتل).

حيث بيّن شدة الحزن والألم الذي أصابهم وحلّ بهم بل عمّ من حولهم لفراق النبي ﷺ وجسّد ذلك في تلك الصورة المجازية **(بَكَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَيْهِ)** فجعل الأرض والسماء وما فيهما يبكيان عليه، فصورهما في صورة إنسان يبكي، وقدّم الأرض لأنها وما فيها أقرب إليهم يلامسونه ويعايشونه، كما أن بكاءها أغرب من بكاء السماء، ويمكن جعل المجاز مرسلاً، وعلاقته المحلية، حيث أطلق المحل **(الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ)** وأراد الحالّين فيه، وهم أهلهما وسكّانهما، وفي التعبير بالمحل دلالة على أن الحزن عليه تجاوز العقلاء إلى غيرهم. وعطف على ذلك بكاء جبريل – عليه السلام– من باب عطف الخاص على العام، للاهتمام بشأن الخاص وبيان منزلته. يقول الخطيب القزويني: "وأما ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات"[1]. فقد كان الصلة بين السماء والأرض، فكان أمين الوحي ومبلغه، وهو الذي يتنزّل به على النبيﷺ وبفقد النبي وموته انقطع هذا الدليل، وفقدت تلك الصلة.

ويعجب ويأسى ويحزن ويزداد حزنه وألمه على تلك الرحمة العظيمة التي كانوا فيها بوجود النبي بينهم وذلك بقوله: **(يَا لَهَا رَحْمَةٌ أُصِيبَ بِهَا النَّا سُ تَوَلَّتْ وَحَانَ مِنْهَا الرَّحِيلُ)** أكد ذلك تنكير **(رَحْمَةٌ)** فقد كان النبي ﷺ محلّها، إلا أنها ذهبت وانقضت برحيله ﷺ. ولعلنا نجده في ذلك متأثراً بما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى مخاطباً نبيه:" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" الأنبياء:١٠٧.

يقول الدكتور مصطفى الشوري: "كان الشعر في أوائل ظهور الإسلام خالياً من أية مسحة دينية أو أية لفظة تشعرنا بأنها قد نظمت في ظلال الدين الجديد... وهذا أمر طبعي؛ لأنّ حياة المسلمين لم تكن قد اكتملت بعد في تلك

١ – الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني: ٣/٢٠٠، ت. د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.

الأيام ومن ثم لم يستطع هؤلاء الشعراء استيعابها وفهمها فهماً جيداً حتى يتناولوها في أشعارهم، وبمرور الزمن، وانتشار الإسلام، وتوالي نزول القرآن، ودوام تلاوته، بدأت ألفاظ جديدة تتسلل إلى أشعار هؤلاء الشعراء وتتردد على شفاههم، محاولين تحرير تلك الأشعار من الخشونة والتعقيد اللفظي مما درجوا عليه في العصر الجاهلي"[١].

ولم يذكر كلمة (الموت) وينسبها للنبيﷺ في تصوير تلك الفاجعة، كأنه عزّ عليه أن يموت النبي ﷺ كما يموت الواحد من الناس، حيث يوغل في التصوير فيصف النبي ﷺ بأنه رحمة، ثم يجوّز بهذه الرحمة في التصوير فيجعلها هي التي **(تَوَلَّتْ)** منزها إياها –أيضاً– عن لفظة الموت، وكأنه ينأى بالنبي ﷺ أبعد ما يكون النأي، وينزهه عن ذكرها أشد ما يكون التنزيه..[٢]

ويكنّي عن الذل والضعف والهوان الذي أصابهم بموت النبي وصار ذلك كأنه ملاصق لهم بقوله: **(جَدَعَتْ قَوْمِيَ الْأَنُوفَ وَأَجْرَت دَمْعَ عَيْنٍ فَلِلْجُفُونِ هُمُولُ)** فالأنف هو الأعلى والأظهر في الوجه وهو مصدر الشمم والإباء في الإنسان، وإذا تم قطعه صار ذلك دليلاً على شدة الضعف والذل والهوان، وإسناد الجدع لقومه يدل على أن أثر تلك المصيبة وذاك الحزن قد عمّ وشمل كل قومه، ومن ثمَّ وجدنا جريان الدموع من الأعين وسيلانها أكدّ ذلك وقوّاه تنكير **(دَمْعَ عَيْنٍ، وهُمُولُ)** مما يدلّ على شدتها وكثرتها وما ذلك إلا بسبب أثر هذا الألم الذي يجدونه والذي أبرزته وجسدته تلك الكناية في صورة بديعة.

ويبين ضعفهم وأنهم لا يملكون من الأمر شيئاً، ويبين مدى التسليم لقضاء الله وقدره بهذا التجسيد البديع **(لَيْسَ لِلنَّاسِ يَا إمَامٌ مِنَ الْأَمْرِ فَتيل وَأَيْنَ مِنْكَ الْفَتِيلُ)** فبيّن عجزهم وضعفهم فهم لا يملكون الشيء القليل الحقير ولا

١– شعر الرثاء في صدر الإسلام: ١٠٤ . د/ مصطفى عبد الشافي الشوري، دار نوبار للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٢ – ينظر المراثي النبوية:٤٣٧.

يستطيعون فعله، وفي تكرار قوله: **(فتيل)** دلالة على قوة الإمام وشدته وإحكامه للأمور.

وقصر علم ذلك والقدرة عليه على الله سبحانه وتعالى بقوله: **(إِنَّمَا الْأَمْرُ لِلَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَفَى خَلْقِهِ عَلَيْهِ دَلِيلُ)** فهو وحده خالق الخلق والقادر على كل شيء، يعلم سرهم ونجواهم، وحياتهم ومماتهم، وفي خلقه دليل على وجوده ووحدانيته.

وهكذا تحدث غير واحد من الصحابة عن بكاء الأرض والسماء على فراق النبي ﷺ، وكان ذلك مظهراً من مظاهر الحزن عليه لم يغب عن الصحابة في رثائهم له. وفي جميع المواطن قدَّم الصحابة بكاء الأرض على بكاء السماء لأنها الألصق بهم والأقرب إليهم، وأضاف بعضهم إلى ذلك كسوف الشمس والقمر، وتشقق الأكباد، وبكاء الملائكة وغيرها وكان ذلك في غاية البراعة والبلاغة، حيث جسدت حب الصحابة له وبينت شدة حزنهم عليه.

المبحث الثاني

فداؤه بالأنفس والأموال والأولاد

لا يخفى على أحد حبّ الصحابة – رضوان الله عليهم– للنبي ﷺ وإيثاره على أنفسهم، وقد كان موته فاجعة أصابتهم بالصدمة الشديدة، وقد تحدّث غير واحد منهم عن فدائه بالنفس والأموال والأولاد، وقد ورد هذا المعني في أربعة مواضع تقريباً **ومن ذلك قول سواد بن قارب:**

إنّ النّبِيّ وَفَاتُهُ كَحَـــيَاتِهِ الْحَـقّ حَقّ وَالْجِهَادُ جِهَادُ
لَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النّبِيّ مُحَمّدًا بُذِلَتْ لَهُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ
وَتَسَارَعَتْ فِيهِ النّفُوسُ بِبَذْلِهَا هَذَا لَهُ الْأَغْيَابُ وَالْأَشْهَادُ
هَـــذَا، وَهَـــذَا لَا يَرُدّ نَبِيّنَا لَوْ كَانَ يَفْدِيهِ فَدَاهُ سَـــوَادُ

فابتداء الأبيات بهذا الخبر المؤكد **(إنّ النّبِيّ وَفَاتُهُ كَحَيَاتِهِ الْحَقّ حَقّ وَالْجِهَادُ جِهَادُ)** يبين ثباتهم على هذا الدين وتمسكهم به، ويشبه شدة ارتباطهم بهذا الدين وإيمانهم به ودفاعهم عنه وثباتهم عليه بعد وفاته بحال ذلك في حياته، فإيمانهم ليس مرتبطاً بشخص النبي ﷺ يذهب بذهابه، فهم يؤمنون بالحق وبهذا الدين ويبذلون الغالي والنفيس في سبيله.

ويستخدم الشاعر سبيل المحاورة بـ لو قيل: فيقول: **(لَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النّبِيّ مُحَمّدًا بُذِلَتْ لَهُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ.)** وجاء بناء الفعل "**بُذِلَتْ**" للمجهول لتركيز الاهتمام على بذلهم أعزّ وأغلى ما يملكون في سبيل فداء النبي ﷺ، كما أن في بناء الفعل للمجهول دلالة على عموم بذل كل من آمن به، وليس ذلك مقصوراً على أحدهم، وكان ذلك " **لَهُ**" دون غيره، مع أن فداءه بعد موته لا يرده ويعيده للحياة إلا أنهم يفعلون ذلك ترويحاً لحرقة ما يجدونه في قلوبهم، وتخفيفاً لشدة ما ألمّ بهم، وإبرازاً لشدة حبهم له.

وجاءت مضارعية الصيغة في قوله: **(تَفْدُونَ)** دالة على تجدد فدائه بالأموال والأولاد والأنفس، فهم لن يتوانوا في تكرار فدائه بأعزّ ما يملكون بل

إنهم يتسابقون ويتسارعون في سبيل ذلك، وجاء تعريف المسند إليه بالإشارة **(هَذَا)** للدلالة على عظم المشار إليه بالقرب، وجاء تقديم الجار والمجرور **(لَهُ)** للدلالة على أن فداءه بـ **(الْأَغْيَابُ وَالْأَشْهَادُ)** خاص به دون غيره، فهو يفدى بكل شيء أكد ذلك الطباق بينهما. وتجد شدة ألم الفقد ومرارته في تكرار اسم الإشارة **(هَذَا)**، ولذا تجد (ابن رشيق– رحمه الله– يقول: "وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء؛ لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع"[1] فالصحابي ﷺ يدرك تلك الحقيقة، ويريد أن يسلط الضوء على نقطة حساسة في التعبير تكشف عن مدى الحسرة على من فقدوه، ويريد أن يشعر السامعين بمدى الخسارة التي حلت بهم بسبب هذا الفقد.[2]

وقد ذكر اسمه في سبيل رثاء النبيﷺ تصغيراً وتحقيراً من شأنها وذلك في قوله: **(لَوْ كَانَ يَفْدِيهِ فَدَاهُ سَوَادُ)** فلو كان أحد يفديه لفداه سواد، فما سواد إلا شيئاً هيناً في جانب النبيﷺ، وقد فداه مرتين مرة ضمن الجماعة في قوله:"**تَفْدُونَ...**" ومرة بنفسه ﷺ.

ولم يقل: فديته؛ بالإتيان بضميره احتراساً من أن يُظَن ذلك إكباراً أو تفضلاً منه، حيث جرّد من نفسه شخصاً آخر تحقيراً من شأن نفسه، كما أن ذلك يوحي بأن نفسه ليست ملكاً له يتصرف فيها كيفما يشاء. ويحتمل أن يكون في قوله: **(سَوَادُ)** تورية، فله معنيان: قريب وهو اسم الشاعر، وبعيد وهو عامة الناس وسوادهم وهذا هو المقصود، كما أن حذف الفاعل في قوله: **(يَفْدِيهِ)** والتقدير: يفديه أحد. لإفادة الكثرة والعموم والشمول، فكل واحد من الناس مهما علا شأنه يتمنى لو كان يفدي النبي ﷺ بكل ما يملك.

وممن تناول هذا المعنى –أيضاً– عبد الحارث بن أنس بن الديان في قوله:

وَلَو قِيْلَ تُفْدُونَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً لَقُلنَا نَعَم بِالنَّفْسِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَر

---

١ – العمدة:١/١٣٥.

٢ – ينظر شعر الرثاء في صدر الإسلام:١٦٧، د/مصطفى الشورى.

وَقَــلَّ لَهُ مِـنَّا الْفِــدَاءُ وَهَذِهِ وَإِنْ بُذِلَــتْ لَا يُسْتَرَدُّ بِـهَا بَشَــرٌ
فَإِنَّ يَكُ وَافَاهُ الحِمَامُ فَدِيـنُهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ خَالَفَ الْحَقَّ قَدْ ظَــهَرَ

وفي هذه المرثية يستخدم الشاعر أسلوب المحاورة بـ **(قال وقلت)** وهو أسلوب يرمي إلى تطهير ما قد يعلق بأنفس الآخرين من شكوك، وانظر إلى الإفاضة في الفداء بعد الإجابة بـ (نعم)، إذ لم يقتصر عليها، بل فصّل تفصيل الواثق القوي بأنهم سيفدونه بأغلى ما يملكون، وجاء ذكر الخاص بعد العام في قوله: **(بِالنَّفْسِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَر)** ليؤكد هذا الأمر، وجاءت مضارعية الصيغة في قوله: **(تُفْدُونَ)** لتدل على تجدد واستمرار الفداء منهم، حيث يهون عليهم بذل أعظم ما يملكون في سبيل فداء النبي ﷺ، فهم يبذلون أخصّ النفائس وأحبها إلى القلب، والتي تكون الحياة بغيرها منغصة لا لذة فيها، ثم ترقَّى درجة في توكيد الفداء فجعل بذل هذه الجوارح مع عِظمها قليلاً إذا ما قورن بفضل ومنزلة النبي ﷺ بقوله: **(وَقَــلَّ لَـهُ مِـنَّا الْفِـدَاءُ)** ويؤيد ذلك ويؤكد قلة وحقارة ما سيبذلونه التعريف باسم الإشارة **(هَذِهِ)** .

ويبين مرارة الأسى وعظم المصاب بهذا الشرط الذي ينم عن نفس مكلومة: **(وَهَذِهِ وَإِنْ بُذِلَــتْ لَا يُسْتَرَدُّ بِـهَا بَشَــرٌ)** فإذا بذلوا أعظم ما يملكون من النفس والأموال والأولاد لن يستطيعوا إبقاءه حياً ﷺ وهذا مما يبالغ في حسرتهم وحزنهم، فمن حان أجله استحال فداؤه، قال جلّ شأنه: "فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ" النحل:٦١. وهذا مما يزيد ألمهم وحزنهم وحسرتهم.

وجاء الاعتراض في قوله: **(وَإِنْ بُذِلَــتْ)** للدلالة على أن بذلهم لهذه الأشياء وإن كانت أعظم ما يملكون لا تبقيه حياً، وفي ذلك من الشعور بمرارة الأسى والحزن على فقده وعظم المصيبة ما فيه.

ويأتي الشرط في قوله: **(فَإِنَّ يَكُ وَافَاهُ الحِمَامُ)** مثيراً لفضول المخاطبين لمعرفة موقفهم تجاه المصيبة التي حلّت بهم، وماذا هم فاعلون؟! أقلقون أم راسخون، أصابرون أم جزعون، أثابتون على إيمانهم أم سيرتدون، فإذا جاء

جواب الشرط قرّ في يقين المنتظِر جوابهم، قاطعاً كلَّ سوء قد يظنه بهم، حيث جاء قوله: **(فَدِيـنُهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ خَالَفَ الْحَقَّ قَدْ ظَـهَرَ)** مبيناً موقفهم من هذا الدين، فإذا كان النبي ﷺ قد مات ووافته المنية فدينه باق وظاهر على كل الأديان، فهو الدين الحق وهو الخاتم، وفي ذلك تسلية لهم عمّا أصابهم، ولقد استحسن الصحابة – رضوان الله عليهم– أسلوب الشرط في مراثيهم، لما وجدوا فيه من بحبوحة نفَّسوا فيها عن كربتهم، فجملة الشرط حمَّلوها أساهم، وجملة الجواب حمَّلوها موقفهم إزاء هذا الأسى والحزن الذي أصابهم.[1]

موازنة:

تحدث الصحابيان عن فداء النبي ﷺ بالأنفس والأموال والأولاد وسلكا طريق المحاورة في التعبير عن ذلك، واتفقا في سؤال طلب الفداء **(لَو قِيْلَ تُفْدُونَ النَّبِـيَّ مُحَمَّداً)** إلا أن جواب (سواد بن قارب) أبلغ من جواب (عبد الحارث بن أنس بن الديان) حيث سارع بالإجابة ببذل الأموال والأولاد والنفوس وكل شاهد وغائب وذلك بدون ذكر حرف الجواب (نعم)، بخلاف (ابن الديان) حيث ذكر حرف الجواب **(لَقُلْنَا: نَعَم. بِالنَّفْسِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَر)**. وحذف حرف الجواب أبلغ، لأنه رأى في ذكره تراخياً فبادر وسارع إلى ذكر أنواع الفداء.

ومما يؤخذ على (سواد) تقديم الأموال والأولاد على الأنفس وذلك في قوله: **(بُذِلَتْ لَـهُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ. وَتَسَارَعَتْ فِيـهِ النّفُوسُ بِبَذْلِهَا...)** بخلاف (ابن الديان) حيث قدّم النفس على السمع والبصر. ولعلّه أَخَّر بذل النفوس ليخصّها بالمسارعة والتسابق في التضحية بها فداء للنبي ﷺ بخلاف البذل فقد يكون بطيئاً.

---

١ – ينظر المراثي النبوية:٣٩٨.

المبحث الثالث

تمني الموت قبله

من المعلوم أننا نُهينا عن تمني الموت بدليل قول النبي ﷺ: " لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي" [1] ففيه التصريح بكراهة تمني الموت لضرّ نزل بالإنسان من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاقّ الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه، لمفهوم هذا الحديث وغيره ..[2] فالصحابة ﷺ خافوا الفتنة بعد موته – وقد كانت– ومن شدة حبهم وتعلقهم به لم يتصورا الحياة بدونه ﷺ فتمنى كثير منهم الموت قبله، وقد ورد هذا المعني فيما يقارب خمسة مواضع، ومن ذلك قول عمرو بن العاص: [3]

صَدَعَ القُلُوبَ مَقَالَةُ الحُـدَّانِي ... وَنَعَى النَّبِيّ خَمِيصَةُ بْنُ أَبَان[4]

يَا لَيْتَنِي أَبْصَـرتُ وَجْـهَ مُحَمَّدٍ ... قَـبْلَ الْوَفَاةِ وبُلَّـتِ الكَفَّـانِ

أَوْ لَيْتَ عَمْرًا مَاتَ قَبْلَ مُصَابِهِ ... وَثَوَى مَدى فِي الْقَبْرِ وَالْأَكْفَانِ

أَوْ لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْـدَ وَفَاتِه ... ذَهَبَ الْقَضَـاءُ بِمُنيَةِ الْإِنْسَانِ

أَوْ كَانَ قَدْ مَـاتَ النَّبِيُّ فَدِينُنَا ... دِينُ النَّبِيّ وَمَا هَـدَاهُ هَـــدَانِي

كَـانَ النَّـبِيُّ أَمَـانَةً مَضْمُـونَةً ... فِـينَا إِلَى أَجَـلٍ وَحَـــدِّ أَوَانِ

فَارْتَدَّهَا مَنْ كَانَ يَمْلِكُ رَدَّهَا ... هَـذَا لَعَمْرُ أَبِيـكَ فِي الْفُرْقَانِ

---

١ – رواه البخاري في صحيحه، كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ الدُّعَاءِ بِالْمَوْتِ وَالحَيَاةِ:٨/٧٦.

٢ – ينظر شرح النووي:١٧/٨.

٣ – ينظر منح المدح: ٢٠٢.

٤ – خمِيصَةُ بن أبَان الحُدَانِيُّ. هو الذي نعى النبي ﷺ إلى أهل عُمَان، قدم عليهم بذلك من المدينة، فقال: يا أهل عمان، أنعي إليكم رسول الله ﷺ، وأخبركم أن الناس يغلون غليان القدور..، ينظر أسد الغابة:٢/١٨٧. والإصابة:٢/٢٩٠.

فقد طغى الحزن والألم على قلب الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ وأحاط به فافتتح مرثيته بذكر البلاء الذي ألمّ به، وزلزل قلبه، ولم يجد خيراً من ذلك ليفتتح به. ومن شدة الألم الذي ألمّ به افتتح مرثيته بذكر اسم من نعى إليه النبي ﷺ.

وبهذا النداء المراد به التعجب والتندم يبكيه ويتوجع على فقدانه فيقول: **(يَا لَيْتَنِي أَبْصَرتُ وَجْهَ مُحَمَّدٍ قَبْلَ الْوَفَاةِ وبُلَّتِ الْكَفَّانِ)** وقد أتبع النداء بالتمني مما يدل على شدة اضطرابه وجزعه لما أصابه، فهو يتحسر ويندم على عدم رؤيته النبي ﷺ ومصافحته قبل وفاته، ويستصغر من شأن نفسه ويحقرها وذلك بذكر اسمه في مرثيته بقوله: **(أَوْ لَيْتَ عَمْرًا مَاتَ قَبْلَ مُصَابِهِ وَثْوَى مَدَى فِي الْقَبْرِ وَالْأَكْفَانِ)** حيث يتمنى أن يكون قد مات قبل أن يصاب بهذه المصيبة، ويوارى أبداً في كفنه، وفي ذلك كناية عن شدة ألمه وحزنه وشدة وقع المصيبة عليه وعدم تحمله. والتعبير بـ **(فِي)** يدل على المبالغة في التغطية والإحكام، أكد ذلك الجمع **(الْأَكْفَانِ)** فليس كفناً واحداً بل أكفان، مما يبين شدة ألمه على فراق نبيه.

وجاء تكرار التمني في مرثية عمرو بن العاص ﷺ ليشعر بشدة وقع الفاجعة التي حلّت به فلسان حاله يقول ليتني فعلت كل شيء ولم أشهد وفاة النبي...

ويصور النبي بالأمانة بهذا التشبيه البليغ في قوله: **(كَانَ النَّبِيُّ أَمَانَةً)** في الحفظ والرعاية وكونها مستردة، فلابد من رجوعها لصاحبها وهو الله – جلّ في علاه، وتنكير **(أَمَانَةً)** يدل على عظم وعلوّ شأن النبي ﷺ ومن ائتمن على أمانة فعليه أن يحافظ عليها ويحيطها برعايته، ويصونها ويدافع عنها حتى تصل إلى صاحبها، ومن ثَمّ كان الصحابة –رضوان الله عليهم– والرسول أمانة عندهم، حيث كانوا يتعاهدونه بالحفظ والرعاية والدفاع عنه وبذل كل ما يملكونه في سبيل ذلك. وجاء تنكير **(أَجَلٍ وَحَدٍّ)** دالاً على قلة مكثه ﷺ بين أصحابه وهذا مما يزيد في أساهم وحزنهم.

وكنّى عن وفاته بردّ تلك الأمانة بقوله: **(فَارْتَدَّهَا مَنْ كَانَ يَمْلِكُ رَدَّهَا)** وجاء العطف بـ (الفاء) ليدل على الإسراع في الردّ وأخذ تلك الأمانة من يملكها، فالله وحده القادر على ردّها. وجاء قوله: **(هَذَا لَعَمْرُ أَبِيكَ فِي الْفُرْقَانِ)** إشارة إلى قوله تعالى: " اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا" الزمر:٤٢. وقوله: " فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ" الأعراف:٣٤. وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه ميت وأنه بشر يجوز في حقه ما يجوز في حقهم من الموت والفناء.

ومن ذلك –أيضاً– قول ابن ذي أَصْبَح الحِمْيَري: [١]

صَدَّعَ القَلْبَ أَهْوَدُ إِذْ نَعَى لِيَ مُحَمَّدَا
لَيْتَنِي قَبْلَ هُلْكِهِ كُنْتُ ثُوِّيتُ الْمَلْحَدا
لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ أَخَا الْأَزْدِ أَهْوَدَا

فقد جاء في مناسبة هذه الأبيات ما روي عن ابن إسحاق، قال: بينما حمير مجتمعة إذ أقبل راكب من الأزد يقال له أهود بن عياض، فقال: يا معشر حمير، أنعى إليكم النبيّ ﷺ، فقال له ابن ذي أصبح: جدّعك الله وافد قوم، كذبت. ما مات، قال: بلى، والّذي بعثه بالحق، فما جزعكم؟ فوالله لأنا أجزع منكم، ولو وجدت أرقّ منكم أفئدة وأغزر عيوناً لنعيته إليهم، فأخرجوه من بينهم وكان عابداً، فقال: اللّهمّ إني إنما نعيت إليهم رسولك لئلا يفتتنوا بعده، وليواسوني في جزعي عليه. فلما تواترت الركبان بموته آووه بعد ذلك.[٢]

فقد طغى الحزن والألم على قلب الصحابي وأحاط به فافتتح مرثيته بذكر البلاء الذي ألمّ به وزلزل قلبه، وفي ذلك إسراع إلى بيان غرضه دون مراوغة

---

١ – أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح الحميري. صحابي. قال الرشاطي في الأنساب: وفد على النبي ﷺ، ففرش له رداءه. وكان بالشام، وكان يُعَد من الحكماء، وله رواية. ينظر الإصابة:١/٢١، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة:١/١٦٧. والأبيات في منح المدح:١٠١.

٢ – ينظر الإصابة:١/٢٩٠.

أو إبطاء، ومن ثم جاء الخبر غير مؤكد في قوله:" **صَدَّعَ القلبَ أهودُ**" فالحزن والألم واضح عمّهم وعمّ من حولهم، لا يحتاج في بيانه توكيداً، وقد صورت الاستعارة في الفعل **(صَدَّعَ)** شدة الألم والحزن الذي أصابهم وأثره في نفوسهم، وأبرزته في صورة الشيء المحسّ الذي يتصدّع من شدة ما حلّ به. كما أن في تضعيف الفعل **(صَدَّعَ)** دلالة على تكرار ذلك الألم واستمراره، فهو ملازمهم لعظم مصابهم.

وتقديم المفعول **(القلبَ)** للعناية به، إذ المقصود في المعنى أن يخبر بتصدّع قلبه وليس مَنْ صدّعه، لأنه أراد أن يبين لنا أثر تلك الفاجعة على قلبه.

ومن شدة وقع الأمر على الشاعر يكاد لسانه أن يعجز عن الكلام ومن ثمّ لم يجد سوى شخص الناعي الذي جاءه بالخبر مبكتاً ومعاتباً له على الألم الذي أحاط به بسبب نعيه.

ويتمنى أن يكون قد واراه التراب ولحد قبل علمه بوفاة النبي وذلك بقوله: **(لَيْتَنِي قَبْلَ هُلْكِهِ كُنْتُ ثُوِّيتُ المَلْحَدا)** ومن شدة حزنه وألمه وإحساسه بالعجز والضعف يتمنى –أيضاً– ألّا يكون قد رأى (أهود بن عياض) الذي ساق له خبر وفاة النبي وذلك في قوله: **(لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ أَخَا الْأَزْدِ أَهَوَّدَا)** ولعل ذلك يوحي بتشاؤمه من رؤيته له؛ لأنه هو الذي نعى إليه النبي، وهذا التشاؤم من بعض معاني الجاهلية التي قد بقيت رواسبها في المراثي وإن كانت قليلة.

وقد حَسُن تكرار التمني **(لَيْتَنِي)** في رثائه لأنه عبارة عن كونه صرخات متشابهة الإيقاع، ولا مناص في الرثاء من الصراخ، وبخاصة حين يكون الميت عزيزاً وجزءاً من النفس..[1]

---

١ – ينظر دراسات في النص الشعري العباسي:١٦٧، د/عبده بدوي، دار الرفاعي للنشر والتوزيع– الرياض، ط٢،١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م.

ومن ذلك –أيضاً– قول مُرَّان بن عُمَيرَة الهمداني: [1]

إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسُولِ طَوِيل ذَاكَ مِنِّي عَلَى الرَّسُولِ قَلِيلُ
قُلْتُ وَالْمَوْتُ يَا إِمَامُ كَرِيهٌ لَيْتَنِي مِتُّ يَوْمَ مَاتَ الرَّسُولُ[2]
لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيْتُ فُوَاقَاً بَعْدَهُ وَالْفُوَاقُ مِنِّي طَوِيلُ[3]

بقلب مكلوم ونفس منكسرة وحزن طويل يرثي (مُرَّان بن عُمَيرَة) رسول الله ﷺ ويتفجع للمصيبة التي حلّت به، وبهذا الخبر المؤكد **(إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسُولِ طَوِيلُ)** الذي يدل على شدة حزنه وألمه على فقده والذي لن يفارقه حيث أخبر عنه بقوله: **(طَوِيلُ)** مما يدل على أنه ملازمه، ومع ملازمته له إلا أنه يعد قليلاً في حقه ﷺ وفي تكرار قوله: **(الرَّسُولِ)** ووضعه موضع ضميره دلالة على رفعته وعلوّ شأنه، ويوحي بالمرارة على فقده، فهو الرسول الذي أرسله ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، وبه كانت السماء متصلة بالأرض عن طريق الوحي، وبموته انقطع هذا الاتصال، ولذا فقد تمنى الموت يوم مات الرسول بقوله: **(لَيْتَنِي مِتُّ يَوْمَ مَاتَ الرَّسُولُ)** فلا يطيق العيش بعده لشدة حبه له وتمسكه به، ولكن هذا الأمر ليس هيناً عليه، فاحترس لذلك بقوله مخاطباً الإمام الذي أمّره الرسول عليهم: **(وَالْمَوْتُ يَا إِمَامُ كَرِيهٌ)** فهو مصيبة كما

---

١ – كان من ملوك همدان، وأسلم فيمن أسلم منهم، وروي أنّ أهل اليمن لما سمعوا بوفاة رسول الله ﷺ تكلم سفهاء همدان بما كرهه حلماؤهم، وقام مران، فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تقاتلوا رسول الله ﷺ، ولم يقاتلكم، فأصبتم بذلك الحظ، ولبستم به العافية، ولم يعمّكم بلعنة تفضح أوائلكم، وتقطع دابركم، وقد سبقكم قوم إلى الإسلام، وسبقتم قوما، فإن تمسكتم لحقتم من سبقكم، وإن أضعتموه لحقكم من سبقتموه، فأجابوه إلى ما أحبّ، وأنشد له أبياتا رثى فيها النبيّ ﷺ مطلعها هذه الأبيات. ينظر الإصابة:٦/٢٨٢.

٢ – يريد بـ الإمام: المهاجر بن أبي ألأمية المخزومي، فقد كان أميراً عليهم مما يلي صنعاء، أمّره الرسول ﷺ. ينظر منح المدح:١٠.

٣ – الفُواقُ: مَا بَين الحَلْبَتَيْن من الوقْت، لأنّها تُحْلَب، ثمَّ تُترَك سُوَيْعَة يرضَعُها الفَصيلُ لتَدِرّ، ثمَّ تُحلَب. تاج العروس: (فوق).

ذكره الله في كتابه:"**فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ**" المائدة:١٠٦. وهو مع ذلك تمناه.

ويستعظم البقاء بعد الرسولﷺ بقوله: **(لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيْتُ فُوَاقًا بَعْدَهُ وَالْفُوَاقُ مِنِّي طَوِيلُ)** كناية عن قلة المدة، حيث يتمنى أن لا يكون قد عاش ولو مدة قليلة بعده، فالقليل في حال فَقْدِ النبي طويل، وتكرار **(فُوَاق)** ووضعه موضع ضميره ليؤكد على هذا المعنى، ويبين أن بقاءه مدة قليلة بعد موت النبي يُعدّ شيئاً طويلاً، فهو لا يقدر على فراقه ويتمنى اللحاق به.

موازنة:

تمنى الصحابة – رضوان الله عليهم– الموت قبل النبي حتى لا يفجعوا بموته، إلا أن (مُرَّان بن عُمَيرَة) يُعد أبلغ من صاحبيه عمرو بن العاص وابن ذي أَصْبَح وذلك من ناحيتين:

الأولى: أنه لم يكن يريد الموت قبل النبي ﷺ حيث تمنى الموت يوم مات الرسول؛ لأن الحياة مع النبي ومخالطته لا يتمنى المؤمن انقطاعها، فضلاً عن أنه ﷺ نهاهم عن تمني الموت. بخلافهما فقد تمنى ابن ذي أصبح أن يكون قد ثوي في لحده قبل موت النبي، وكذا تمني عمرو بن العاص وإن كان قد تمنى–أيضا– ألّا يبقى بعد وفاته.

الثانية: أنه أراد أن يموت في هذا اليوم المشهود الذي مات فيه النبي ﷺ وكأنه أراد أن يخلد ذكره بموته يوم مات النبي فلعل نفحة من نفحات الرحمة تصيبه في هذا اليوم.

وتمنوا ألّا يَبْقَوا بعد النبي ويعد قول (عمرو بن العاص) أبلغ من قول (مُرَّان بن عُمَيرَة) فهو أوجز حيث عبر عنه في شطر واحد من البيت واتبعه بحكمة في الشطر الآخر وذلك في قوله: **أَوْ لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ذَهَبَ الْقَضَاءُ بِمُنيَةِ الْإِنْسَانِ**. أما (مُرَّان) فقد تمنى ألّا يَبْقى زمنا يعدل ما بين الحلبتين للناقة وعدّ ذلك طويلاً وذلك في قوله: **لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيْتُ فُوَاقًا بَعْدَهُ وَالْفُوَاقُ مِنِّي طَوِيلُ**.

المبحث الرابع

إظهار المنافقين والكفار الشماتة بعد موته

أوضح القرآن الكريم أن الشماتة من أخلاق الكفار والمنافقين قال الله – عز وجل: "**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**" آل عمران: ١٢٠، وقال تعالى: "**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**" التوبة:٥١. وفي غزوة أحد فرح المنافقون والكفار بما أصاب الرسول ﷺ والمؤمنين من جراحات فأنزل الله عز وجل قوله: "**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**" آل عمران:١٤٠.

ولما قبض النبي ﷺ شمتت اليهود والنصارى بأهل الإسلام، وظهر النفاق في المدينة ممن كان يخفيه قبل ذلك، وماج الناس واضطربوا، وقد تناول الصحابة تصوير ذلك في مراثيهم، وقد ورد هذا المعني في خمسة مواضع تقريباً، وممن تناول ذلك امْرُؤُ الْقَيْسِ بْنُ عَابِسٍ الْكِنْدِيُّ [١] حيث يقول في مرثيته:

---

١ – امرؤ القيس بن عابس الكندي وفد على رسول الله ﷺ وخاصم إليه في أرض ورجع إلى بلاده وثبت على إسلامه، ولم يرتد مع من ارتد من كندة، وأنكر على الأشعث بن قيس ارتداده وأسمعه كلاماً غليظاً، ثم خرج إلى الشام مجاهداً وشهد اليرموك، وكان نازلاً ببيسان من الشام فلما وقع طاعون عمواس أسرع في كندة، وكان له –رضي الله عنه– غناء في الردة، ولما أخرج الكنديون عن الردة ليقتلوا وثب على عمه ليقتله، فقال له عمه: ويحك يا امرأ القيس أتقتل عمك؟! قال: أنت عمي والله ربي وقتله... ينظر الوافي بالوفيات:٢١٨/٩. لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

شَمِتَ البَغَايَا يَوْمَ أَعْلَنَ جَهْبَل بِنَعْيِ أَحْمَدَ النَّبِيِّ الْمُهْتَدِي[١]
صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسْتَوْدَعٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِياً فِي مَلْحَدِ[٢]
يَا رَاكِبًا ! إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ عَنِّي أَبَا بِكْرٍ خَلِيفَةَ أَحَمْد
لَا تَتْرُكَنَّ عَوَاهِراً، سُودَ الذَّرَى يَزْعُمْن أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُفْقَدِ[٣]
اشْفِ الْغَلِيلَ بِقَطْعِهِنَّ فَإِنَّهَا كَالْجَمْرِ بَيْنَ جَوَانِحِيٍّ لَمْ تَبْرُدِ

يفتتح الشاعر مرثيته بذكر شماتة البغايا في وفاة النبيﷺ حينما نعاه **(جَهْبَل)** هذا الصحابي، وفي ذكرهن بهذا الوصف **(البَغَايَا)** تحقير لهم. وقوله: **(أَحْمَدَ النَّبِيِّ الْمُهْتَدِي)** يوحي بمرارة الأسى والحزن الذي يعانيه هذا الصحابي من ألم فَقْد النبي الهادي. ومن ثَمَّ كان دعاؤه له: **(صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسْتَوْدَعٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا فِي مَلْحَدِ)** مشعراً بمزيد من الألم الذي يجده، والرضى بقضاء الله وقدره، وفي الدعاء له بيان لتعلق الصحابة ﷺ بالدار الآخرة، وما يرجونه للنبي بعد وفاته عند ربه.

---

١ – لما قبض رسول الله ﷺ ذهب بنعيه إلى حضرموت رجل من كليب، من بني عامر بن عوف وبني الجلاح يقال له جهبل .. وكان بحضرموت ست نسوة من كندة وحضرموت يتمنين موت رسول الله ﷺ فخضبن أيديهن بالحناء وضربن بالدفوف، فخرج إليهن بغايا حضرموت ففعلن كفعلهن، وكان اللواتى اجتمعن إلى النسوة الست نيفاً وعشرين امرأة فكن متفرقات في قرى حضرموت.. فكتب امرؤ القيس بن عابس الكندي إلى أبى بكر الصديق –رحمه الله.. شمت البغايا.. الأبيات. ينظر المحبر:١٨٤ وما بعدها، لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي، ت/ إيلزة ليختن شتيتر، جمعية دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦١هـ. والشماتة: أصل هذه الكلمة يدلُّ على فَرَح عَدُوٍّ بِبَلِيَّة تُصِيب مَنْ يُعَادِيه، يقال: شَمِتَ العَدُوُّ كفَرِحَ وزْنًا ومعْنًى، يَشْمَتُ شَمَاتَةً وشماتًا، وشَمِتَ الرَّجُلُ: إذا فَرِحَ ببَلِيَّةِ العَدُوّ، وباتَ فلانٌ بلَيْلَة الشَّوامِت، أي بلَيْلَةٍ تُشْمِتُ الشَّوامت. فالشَّمَاتَة: هي الفَرَح ببليّة مَن تعاديه ويعاديك. ينظر مقاييس اللغة: (شمت).

٢ – ثَاوِياً: يقال ثوى بالمكان أي: أقام به. ينظر: أساس البلاغة: (ثوى).

٣ – الذَّرَى: الشيب، والذُّرَى: جمع ذِرْوَة وهي أعْلَى سَنام البَعير . وذِرْوة كُلِّ شيء أعلاه. ينظر تهذيب اللغة: (ذرأ)، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ذرأ.

وتجد أثر القرآن في تعبيره بقوله: **(مُسْتَوْدَعٍ)** فالله تعالى يقول: " وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا" هود:٦. أي: مستقرها في الأرحام، ومستودعها في الأرض حيث تموت فيها[١] وهو كناية عن القبر الذي وُورِي فيه جثمانه الشريف، وفي تعبيره بـ **(يَثْرِبَ)** دون المدينة، ما يوحي بشدة الأثر الذي أحدثه فراق النبي ﷺ عليهم وعلى المكان الذي دفن فيه، حتى كأنه قد عاد إلى ما كان عليه قبل الهجرة إليه، وفي ذلك مزيد من الأسى والحزن. وجاء نداؤه على الركب الذين سيصلون لخليفة رسول الله مشعراً بمزيد من الكراهية والبغض لهؤلاء الشامتين في وفاة النبي **(يَا رَاكِبًا! إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ عَنِّي أَبَا بِكْرٍ خَلِيفَةَ أَحَمْدِ...)** فطاعة خليفته، وحرب المرتدين، والإغلاظ على الشامتين يُعَدّ وفاء للنبي ﷺ وقياماً بحقه، كما أن مزجه بالرثاء لا يعدله التباكي عليه.

ويدعوه ويطلب منه ألّا يذر تلك البغايا بل يعاقبهن على فعلتهن الشنيعة بقوله: **(لَا تَتْرُكَنَّ عَوَاهِراً)** وتأكيد الفعل بالنون الثقيلة تأكيد للنهي، وفي تنكير **(عوَاهِراً)** ووصفهن بتلك الصفة دلالة على تحقيرهن وسوء فعلتهن.

وبيّن صفاتهن بأنهن يُزَوّرْن شيبهن بالسواد مما يدلّ على خداعهن وتزويرهن حقائق الأشياء، وهذا الوصف يتماشى مع المنافقين، ويحتمل أن يكون كناية عن كشفن شعرهن وتلك عادة البغايا إذ ذروة كل شيء أعلاه.

وجاء قوله: **(اشْفِ الْغَلِيلَ)** كناية عن انتقامه وإذهاب غيظه وحقده على هؤلاء اللاتي تمنين موت النبي، فخضبن أيديهن وأظهرن محاسنهن وضربن بالدفوف جراءة منهن على الله واستخفافاً بحقه وحق رسوله ﷺ حيث أراد قطع أيديهن[٢] وفي التعبير بقوله: **(بِقَطْعِهِنَّ)** دلالة على شدة انتقامه منهن لعظم

١ – تفسير الطبري:٩/٤٣٤.

٢ – وكتب –أيضاً– إلى أبي بكر ﷺ شداد بن مالك الحضرمي في شأن تلك النسوة، فلما قدم كتابهما على أبى بكر قال: جزى الله أخا كندة وأخا حضرموت عن الإسلام خيراً ثم كتب إلى المهاجر بن أبي أمية: " بسم الله الرحمن الرحيم. من أبى بكر إلى المهاجر=

جرمهن، وأكد ما يجده في نفسه جراء فعلتهن بتصويره بالجمر في قوله: **(فَإِنَّهَا كَالْجَـــمْرِ بَيْنَ جَوَانِحِيّ لَمْ تَبْرُدِ)** في شدته وتوهجه وحرقته، ولذا جاء رجاؤه من خليفة رسول الله بالعمل على إطفاء ما يجده في صدره وتبريده وذلك بقطع أيديهن التي خضبنها وضربن بها الدفوف استخفافاً، فما زال أثر ذلك قائماً بين جوانحه وذلك مما يدلّ على شده حبه للنبي ﷺ وغيرته على دينه وشدة تمسكه به ودفاعه عن نبيه، أكده الطباق بين قوله: **(الْجَـــمْر** و**تَبْرُدِ)**.

وقريباً منه قول شداد بن مالك بن ضمعج وكان قد أرسل – أيضاً– إلى أبي بكر ﷺ بما فعلته النسوة حيث يقول:

أَبْلِغْ أَبَا بَكْـــرٍ إِذَا مَا جِئْتَهُ أَنَّ الْبَغَـايَا رُمْنَ شَرَّ مَـــرَامِ
أَظْهَرْنَّ مِنْ مَوْتِ النَّبِيّ شَمَاتَةً وَخَضَبْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالْعُـلَّامِ (١)
فَاقْطَعْ هُدِيْتَ أَكُفَّهُنَّ بِصَارِمٍ كَالْبَرْقِ أَوْمَض فِي مُتُونِ غَمَامِ

حيث يلتمس ممن سيأتي أبا بكر ﷺ وبيّن أنه سيصل إليه وأكد ذلك التعبير بـ **(إذا)**– بأن يخبره بما فعل البغايا حيث مِلْنَ شر ميل وحِدْن عن الجادة وفي هذا إيهام وغموض لجذب انتباه المخاطب وتشويق إليه حتى إذا

=بن أبي أمية أما بعد: فإن العبدين الصالحين أمرا القيس بن عابس الكندي وشداد بن مالك الحضرمي اللذين أقاما على دينهما إذ رجع عنه جل قومهما فأثابهما الله على ذلك ثواب الصالحين وصرع الآخرين مصارع الظالمين كتبا إليّ يزعمان أن قِبَلَهما نسوة من أهل اليمن كن يتمنين موت رسول الله ﷺ وانضم إليهن قيان لكندة وعواهر لحضرموت. ... فإذا جاءك كتابي هذا فسر إليهن بخيلك ورجلك حتى تقطع أيديهن فإن دفعك عنهن دافع أو حال بينك وبينهن حائل فاعذر إليه باتخاذ الحجة عليه، وأعلمه عظيم ما دخل فيه من الإثم والعدوان، فإن رجع فاقبل منه وإن أبى فنابذه على سواء "وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ" يوسف:٥٢. .. ينظر المحبر:١٨٧. المؤلف: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١ – العلام: الحناء. تاج العروس: (علم).

ما جاء البيان والتوضيح تمكّن في ذهنه أيما تمكن، ومن ثمّ جاء البيان في البيت الثاني بقوله: **(أَظْهَرْنَّ مِنْ مَوْتِ النَّبِيِّ شَمَاتَةً وَخَضَبْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالْعُلَّامِ)** حيث بيّن شماتتهن من موت النبي ﷺ وخضاب أيديهن بالحناء كناية عن سعادتهن وفرحهن بوفاته، والتعبير بـ **(أَظْهَرْنَّ)** يدل على شدة الحقد.

والوصل بين **(أَظْهَرْنَّ)** و **(خَضَبْنَ)** للتوسط بين الكمالين، حيث بين ما انطوت عله أنفسهن من حقد وكفر فلم يكتفين بإظهار الشماتة وإنما ضموا إليها تخضيب الأيدي بالحناء، ومن ثمّ يدعوه لقطع تلك الأيدي التي ضربت الدفوف وأخضبت بالحناء جزاء مكرهن وشماتتهن في قوله: **(فَاقْطَعْ هُدِيْتَ أَكُفَّهُنَّ بِصَارِمٍ كَالْبَرْقِ أَوْمَض فِي مُتُونِ غَمَامِ)** وأن يكون ذلك على وجه السرعة فلا يتوانى عن عقابهن بسيف حادّ كالبرق في سرعته ولمعانه، يذهب بأكفهن ذهابه بالأبصار، ويشق هذا العناد ويزيل تلك السخرية ويمحو هذه الشماتة.

وممن تناول هذا المعنى – أيضاً– عبد الله بن سلمة الهمداني في قوله: [1]

إِنَّ فَقْدَ النَّبِيِّ جَدَعَنَا الْيَوْ مَ فَدَتْهُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ
وَفَدَتْهُ النُّفُوسُ، لَيْسَ مَنِ المو ت فِرَارٌ وَأَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ
مَا أُصِيبَتْ بِهِ الْغَدَاةَ قُرَيْشٌ لَا وَلَا أُفْرِدتْ بِهِ الْأَنْصَارُ

١ – جاء في مناسبة هذه المرثية أن وفد همدان خرج لما بلغتهم وفاة النبي ﷺ، فدخلوا على أبي بكر الصديق، فقال: يا معشر قريش، إنكم لم تصابوا بالنبيّ ﷺ، دون سائر العرب، لأنه لم يكن لأحد دون أحد، وأيم الله، لا أدرى أي الرجلين أشد حزناً عليه، وأعظم مصاباً به، من عاينه فغاب عنه عيانه، أو من أشرف على رؤيته، فلم يره؟ غير أنا معترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم، وللأنصار بفضل نصرتهم، والتابع ناصر، والمؤمن مهاجر.. وكلام غير هذا صدر عن قلب مؤمن، وجأش به خاطر شديد، فأثنى عليه أبو بكر خيراً، وحمدته قريش، وكان سيداً وأنشد هذه المرثية. ينظر الإصابة:٥/٩١، والاكتفاء:٢/٣٧٠.

دُونَ مَنْ وَجَّهَ الصَّلَاةَ إِلَى اللـــه وَقَدْ هَنِئَتْ بِهِ الْكُفَّارُ
وَرِجَـــالٌ مُنَافِقُونَ شِـــمَاتٌ يَوْمَ وَارَوْهُ كُـفرُهُمْ إِسْـــرَارُ

حيث ابتدأ الصحابي مرثيته وافتتحها بذكر خبر وفاة النبيﷺ والحزن والألم الذي أحاط بهم، حيث بغتهم وطغى على قلوبهم بقوله: **(إِنَّ فَقْدَ النَّبِيِّ جَدَعَنَا الْيَوْم فَدَتْهُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ)** وجاء الخبر مؤكداً بـ **(إِنَّ)** دلالة على تمكن الحزن منهم، وكنّي بذلك عن الضعف والهوان الذي أصابهم بموته، وصار ذلك كأنه ملاصق لهم. ومع أن فداءه بعد موته لا يرده ويعيده للحياة إلا أنهم يفعلون ذلك ترويحاً لحرقة ما يجدونه في قلوبهم، وتخفيفاً لشدة ما ألمّ بهم، وإبرازاً لشدة حبهم له. ولذا جاء قوله: **(فَدَتْهُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ وَفَدَتْهُ النُّفُوسُ)** بالتعبير بالماضي دلالة على تحقق ذلك منهم، وتكرار الفعل **(فَدَتْهُ)** يدل ويؤكد استعدادهم للفداء، وليس ذلك خاص به وبقومه بل فداؤه يعمّ ويشمل كل الخلق أكد ذلك جمع **(الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ وَالنُّفُوسُ)** وتعريفها بـ "أل" التي تفيد الجنس، وفيها ترقٍ من الخاص إلى العام وعطف عليه للاهتمام بشأن الخاص، فقد بدأ بالأسماع وهي أول من تلقى خبر وفاته وعطف عليها الأبصار التي لم تتمالك ما سُمِع ففاضت بالدمع، وعطف على ذلك بالنفوس كلها فبذلها لا يعدل شيئاً فداء للنبي ﷺ إن كان فداء.

وصور الموت وجسّده في صورة شيء مخيف يفرّ منه من رآه، ولكن هيهات هيهات فليس منه فرار، حيث يعزي نفسه بأن الموت حتم، ويعجب ممن يفكر في الهرب منه بتكرار الاستفهام في قوله: **(لَيْسَ مَنِ الموت فِرَارٌ وَأَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ)**.

وفي تعبيره بـ **(الْغَدَاةَ)** في قوله: **(مَا أُصِيبَتْ بِهِ الْغَدَاةَ قُرَيْشٌ لَا وَلَا أُقْرِدَّتْ بِهِ الْأَنْصَارُ)** دلالة على شدة صدمتهم وفجأتهم من أول النهار، وكأنهم ما زالوا في نومهم وغفلتهم واستيقظوا على تلك المصيبة مما يدل على شدة الصدمة والألم الذي حلّ بهم. ويؤكد شدة حزنهم وألمهم بتكرار النفي في قوله: **(لَا)** فالحزن عمّهم جميعاً، وليس مقتصراً على المهاجرين والأنصار، فألم فَقْد النبي ﷺ أصاب وعمّ جميع المسلمين، وفيه ردّ على من يظن أن يكون المهاجرون والأنصار

أصيبوا بالرسول ﷺ دون من سواهم من إخوانهم المسلمين، وهذا المعنى فيه من الحنان والرقة ما فيه، زاده حرف النفي القاطع (لَا) إخلاصاً والتياعاً.

وفي قوله: **(دُونَ مَنْ وَجَّهَ الصَّلَاةَ إِلَى اللـه)** إيماء إلى أنهم يشاركونهم في الحزن والأسى على فقده، وأنهم مستمسكون بدينه باقون عليه، وتعريض بهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم بعد موته.

وعلى نقيض ذلك فريق فرح بموت النبي ﷺ وهم الكفار وبيّن ذلك وأكده في قوله: **(وَقَدْ هَنِئَتْ بِهِ الْكُفَّارُ)** حيث التعبير بـ **(قد)**، والماضي في قوله: **(هَنِئَتْ)** مما يدل على شدة فرحهم وشماتتهم في مصاب المسلمين ظناً منهم انتهاء دينهم بموت نبيهم، وقد عطف عليهم فئة أخرى شاركتهم في الشماتة والفرح بقوله: **(وَرِجَـالٌ مُنَافِقُونَ شمَاتٌ يَوْمَ وَارَوْهُ كُـفرُهُمْ إِسْـرَارُ)** وجاء تنكيرهم دلالة على دناءتهم وتحقيرهم، فقد كانوا يستترون بعباءة هذا الدين إلا إنهم يضمرون الكفر والعداوة والبغضاء له ولأتباعه ولرسوله، ولذا كانت شماتتهم بموته، فهم والكفار سواء بل هم أشد.

وقد بيّن التقابل بين الفريقين عظم التفاوت بينهما، فهناك فريق صرعه موت النبي، ويتمنى فداءه بالأسماع والأبصار وبالأنفس –إن كان الفداء يبقيه– ولكنه الموت الذي لا مفرّ منه– وهنا فريق يهنأ ويفرح ويشمت في موته ﷺ وشتان بين الفريقين وما أعده الله لكل منهما.

وممن تناول هذا المعنى – أيضاً– أبو الهيثم مالك بن التيهان الأنصاري[1] في قوله:[2]

---

١ – هو مالك بن التيهان الأنصاري الأوسي، أبو الهيثم: صحابي. كان يكره الأصنام في الجاهلية، ويقول بالتوحيد، هو وأسعد بن زرارة. وكانا أول من أسلم من الأنصار بمكة. وهو أحد النقباء الاثني عشر. شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها. وتوفي في خلافة عمر، وقيل: شهد صفين مع عليّ، وقتل بها سنة ٣٧ هـ . ينظر الإصابة:٣٦٦/٧. والأعلام:٢٥٨/٥.

٢ – لما مات النبي أقبل مالك بن التيهان الأنصاري حتى وقف على قومه، فقال: يا معشر الأنصار، أنصتوا واسمعوا مقالتي، وتفهموا ما ألقيه إليكم، اعلموا أنه قد شمتت اليهود والنصارى بموت نبينا محمد عليه السلام، وقد ظهرت عداوة أهل الردة، وعظم المصائب علينا أن مسيلمة=

أَلَا قَدْ أَرَى أَنَّ الْمُنَى لَمْ تُخَلَّد لِأَنَّ الْمَنَايَا لِلنُّفُوسِ بِمَرْصَدِ
لَقَدْ جُدِّعَت أَذَانُنَا وَأُنُوفُنَا غَدَاةَ فُجِعْنَا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ
تَكَلَّمَ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنْ بَعْدِ ذِلَّةٍ لِغَيْبَةِ هَادٍ كَانَ فِينَا وَمُهْتَدِ
ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ كُلُّهُمْ يَرُوحُ عَلَيْنَا بالشَّنَانِ وَيَغْتَدِي[1]
نَصَارَى يَقُولُونَ الْفِرَى وَمُنَافِقٌ شَبِيْهٌ بَذَاكَ الشَّامِتِ الْمُتَهَوِّدِ
وَأَوعَدَ كَذَّابُ الْيَمَامَةِ جُهْدَهُ فَأَجْلَب عُوْدَاً بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
فَإِنْ تَكُ هَذَا الْيَوْمَ مِنهُمْ شَمَاتَةٌ فَلَا يَأْمَنُوا مَا يُحْدِثُ اللهُ فِي غَدِ
وَمَا نَحْنُ إِنْ لَمْ يَجْمَعِ اللهُ أَمْرَنَا بِخَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بَعْدَ أَحْمَدِ
بِأَمْنَعَ مِنْ شَاءٍ بِقَفْرٍ مَطِيرَةٍ بِقِيعَةِ قَاعٍ أَوْ ضَبَابٍ بِفَدْفَدِ[2]

فقد افتتح مرثيته بأداة التنبيه (**أَلا**) لجذب الانتباه لما سيقوله، بهذا الشعور المفعم بالحزن والغضب والأسى، وتلك الحكمة حيث يفرغ من خلال أداة التنبيه هنا لواعج الحسرة ومرارة الفقد، ولهيب الفراق، فبيّن أن الرغبة في بقاء المحبوب بعيدة المنال وقد أكّد ذلك بـ (**قد** و **إنَّ**)، ولأنَّ الحزن كان عميقاً، والجرح كان غائراً احتاج إلى رفع وامتداد صوته، فكانت (**أَلا**) الاستفتاحية حيث " هي من المقاطع الصوتية المفتوحة التي ترسل الصوت في امتداد

=الكذاب خرج بأرض اليمامة برعد وبرق، وقد تعلمون أنه كان يدعي النبوة في حياة نبينا ﷺ، والآن قد بلغني أن طليحة بن خويلد الأسدي أيضا قد ادعى النبوة ببلاد نجد، وأنا والله خائف على قبائل العرب أن ترتد عن دين الإسلام، فإن لم يقم بهذا الأمر رجل من بني هاشم، أو رجل من قريش فهو والله الهلاك والبوار، ثم أنشأ هذه المرثية. ينظر كتاب الردة للواقدي:٢٩.

١ – الشنان: البغض. لسان العرب: (شنأ) .

٢ – القيعة: من القاع، والقاع: ما انبسط من الأرض، وفيه يكون السراب نصف النهار، ومراد الشاعر بقوله: (بِقِيعَةِ قَاعٍ) أي ما كان أكثر تطامناً من القاع. والفدفد: المكان المرتفع، فيه صلابة وغلظة. ينظر لسان العرب: (قوع، فدفد).

متسع"[1] وقد علل ذلك بأن الموت يترصد صاحبه حيث صوره في صورة مراقب ومترصد ينتظر الفرصة لينقض عليه، ولذا فُصل بين الجملتين، وقد جانس بين **(المُنَى و الْمَنَايَا)** ليبين أن المنية قريبة من الأمنية، ولذا فالإنسان يعيش في قلق وتوتر دائم بسبب ما يخبئه له القدر، فهو دائم التوجس من هازم اللذات ومفرق الجماعات.

ويكنّي عن الذل والهوان والضعف الذي أصابهم بموت النبي ﷺ وصار ذلك كأنه ملاصق لهم، ويؤكد ذلك بـ (اللام الموطئة للقسم و قد) وذلك في قوله: **(لَقَدْ جُدِّعَتْ آذَانُنَا وَأُنُوفُنَا غَدَاةَ فُجِعْنَا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ)** فالأنف هو الأعلى والأظهر في الوجه وإذا تم قطعه صار ذلك دليلاً على شدة الذل والهوان لصاحبه، وتضعيف الصيغة في قوله: **(جُدِّعَ)** يدل على المبالغة وبيان أثر تلك المصيبة وذاك الحزن الذي قد عمّ وشمل كل قومه يؤكد ذلك الإسناد للضمير **(نَا)** في قوله: **(آذَانُنَا وَأُنُوفُنَا)**، كما أن في بناء الصيغة للمجهول دلالة على التركيز على الحدث وهو الجدع، وبيان أن هذا الحدث آلمهم وأحزنهم، وفي تقديم الآذان على الأنوف لأنها هي أول من تلقّت خبر تلك الفاجعة، وذكر قوله: **(غَدَاةَ)** دلالة على سرعة انتشار خبر وفاته ﷺ وعلى شدة صدمتهم وفجأتهم من أول النهار، وكأنهم ما زالوا في نومهم وغفلتهم واستيقظوا على تلك المصيبة مما يدل على شدة الصدمة والألم الذي حلّ بهم. وقد تآزرت تلك الألوان البلاغية مع الكناية في إبراز هذا المعنى وتجسيده وتصويره في صورة بديعة.

ثم يصور لنا حال الكفار والمنافقين وأهل الشرك من تلك الفاجعة التي حلّت بالمسلمين، وهو في ذلك ينتقل بنا من إجمال إلى تفصيل لجذب انتباه المخاطب وليتمكن في الذهن أيما تمكن وذلك في قوله: **(تَكَلَّمَ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنْ**

---

١ – دلالات التراكيب:٢٦٢، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧م .

بَعْدِ ذِلَّةٍ) حيث بيّن أنهم من شدة عنتهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر صاروا أهلاً للكفر، فقد تمكن منهم فهم أهله الحقيقيون، وذلك مما يبرز خستهم وحقارتهم. وتكلّمهم كناية عن ظهورهم بعد خفائهم، فقد كانوا أذلاء في عهد النبي ﷺ وما استطاعوا التكلم والشماتة إلا بعد موته، قوّى ذلك تنكير **(ذِلَّةٍ)**، وكنّى عن النبي بقوله: **(لِغَيْبَةِ هَادٍ كَانَ فِينَا وَمُهْتَدِ)** وتنكير **(هَادٍ)** دلالة على تعظيمه ورفعته وعلوّ شأنه ﷺ.

وفي قوله: **(ثَلاثَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ كُلُّهُمْ)** جمع عمل على جذب الانتباه والتطلع لمعرفتهم، وجاء تنكيرهم دلالة على دناءتهم وحقارتهم وتجدد بغضهم وعداواتهم للنبي وأصحابه واستمرار شماتتهم في كل ما يصيبهم أكد ذلك الطباق بين قوله: **(يَرُوحُ وَ يَغْتَدِي)**. وجاء تقسيم تلك الأصناف وبيانها بقوله: **(نَصَارَى يَقُولُونَ الْفِرَى وَمُنَافِقٌ شَبِيْهٌ بَذَاكَ الشَّامِتِ الْمُتَهَوِّدِ)** فتمكن في الذهن أيما تمكن. وتنكيرهم دلالة على بعدهم وحقارتهم وسوء فعلتهم، فهم مستمرون في كذبهم وشماتتهم وضلالهم.

وعطف عليهم (مسيلمة الكذاب) حيث كنى عنه بقوله: **(وَأَوعَدَ كَذَّابُ الْيَمَامَةِ جُهْدَهُ فَأَجْلَب عُوْدَاً بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ)** فقد ادعى النبوة، وأن الله تعالى أشركه بالنبوة مع النبي ﷺ وأضل قومه بلسانه وكذبه وكهانته وشماتته، وعادى المسلمين وقاتلهم بجيش من قومه إلى أن هُزموا.

وجاء الشرط المتضمن وعيداً لهؤلاء الشامتين المشركين: **(فَإِنْ تَكُ هَذَا الْيَوْمَ مِنْهُمْ شَمَاتَةٌ فَلَا يَأْمَنُوا مَا يُحْدِثُ اللهُ فِي غَدِ)** فلا يأمنوا مكر الله بهم في الآخرة، وما قد يقع بهم من هزائم على يد المسلمين في الدنيا. حيث يشير – أيضاً– إلى قوله تعالى: " لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا" الطلاق:١.

ويصور حالهم وما صاروا إليه بعد فراق النبي ﷺ في الأبيات التالية حيث شبه حالته وقومه إن لم يجتمعوا على الخليفة القرشي بحالة شاءٍ تركت في مَهْمَهٍ أمطرتها السماء، فأظلمت ورعبت وأوحلت، أو تركت في جبل أطبق الضباب عليه فلا يبصرون، حيث الهوان والضعف والهلع، ولذا يقول عروة بن

الزبير – رضي الله عنهما– عن ذلك اليوم العصيب الذي توفي فيه النبي ﷺ يقول: وقد ارتدت العرب، إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم وقلتهم، وكثرة عدوهم..[1]

موازنة:

تناول الصحابة بيان شماتة الكفار والمنافقين في وفاة النبي ووصفوهم بالبغايا وطالبوا سيدنا أبا بكر بقتالهم والتصدي لهم وقطع أيدي من خضبن بالحناء وضربن الدفوف فرحاً لموته. وأرى أن التعبير بـ (الصارم) في قول شداد بن مالك: **فَاقْطَعْ هُدِيْتَ أَكُفَّهُنَّ بِصَارِمٍ كَالْبَرْقِ**. يضعف المعنى، فربما يفهم من القطع بالصارم لئلا يتألمن كثيراً، وقد جعل القطع هنا للأكف في حين أن (امْرَأ الْقَيْسِ بْن عَابِسٍ الْكِنْدِيّ) في قوله: **(اشْفِ الْغَلِيلَ بِقَطْعِهِنَّ)** لم يحدد آلة القطع ولا المراد قطعه، فكان أبلغ. لما في عدم التحديد من العموم والشمول الذي يتناسب مع شناعة فعلتهن.

وقد وصف عبد الله بن سلمة الهمداني الشامتين بموت النبي بالرجال في قوله: **(وَرِجَالٌ مُنَافِقُونَ شِمَاتٌ)** ولا يوصف بهذا الوصف إلا في المواطن المهمة والعظيمة –وإن كان قد وصفهم بالنفاق– وهذا بخلاف غيره من الصحابة فقد وصفوا من شمت بموته ﷺ من الكفار والمنافقين بالبغايا فكانوا أبلغ؛ تحقيراً لهم ومن ثمّ فلا يستحقون وصفهم بالرجولة.

---

١ – ينظر تاريخ الرسل والملوك:٣/٢٢٥.

المبحث الخامس

بكاء الصحابة عليه وعدم استحقاق البكاء على أحد بعده

البكاء نعمة عظيمة امتنّ الله بها على عباده، قال تعالى: "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى" النجم:٤٣. فبه تحصل المواساة للمحزون، وجلاء للهموم والتماس للراحة، والتسلية للمصاب، والمتنفّس من هموم الحياة ومتاعبها، وهو رقة للقلب ونقاوة للنفس حيث يلجأ إليه كل مصاب ليسلو به عن نفسه ويرى عزاءه فيه.

وقد كان موت النبي ﷺ من أعظم المصائب التي وقعت على المسلمين، فقد أظلمت الدنيا في عيون الصحابة ﷺ وتقطعت قلوبهم، وتمزقت نفوسهم، وتحطمت مشاعرهم، فالمصيبة أذهبت عقول الأشداء من الرجال، وأذهلت ألباب الحكماء منهم، ومن ثمّ وجدناهم يبكون عليه ولا يكفون عن ذلك ويطالبون عيونهم ببكائه، فلا يستحق أحد البكاء عليه بعده ﷺ فقد عظم الفقد واشتد، وقد ورد هذا المعني فيما يقارب ستة مواضع، ومن ذلك قول عمرو بن الفحيل الزبيدي: [1]

أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ الرَّقْرَاقِ لِفِرَاقِ النَّبِيِّ يَوْمَ الْفِرَاقِ
قُلْتُ وَاللَّيْلُ مُطْبِقٌ بِعُرَاهُ إِنَّ حُزْنِيَ عَلَى الرَّسُولِ لَبَاقِي
لَيْتَنِي مِتُّ يَوْمَ مَاتَ وَلَمْ أَلْـ ـقَ مِنَ الرُّزْءِ مَا أَنَا لَاقِ
كَانَ غَيْثاً يَجِيءُ لِلْبَلَدِ الْمَحْـ ـلِ وَشَمْسًا تُضِيءُ لِلْإِشْرَاقِ

١ – لما انتهى موت النبيّ ﷺ إلى بني زبيد، وكان رأسهم عمرو بن الفحيل وكان مسلما مهاجرا، فتكلم عمرو بن معد يكرب ودعا إلى الردة، فغضب عمرو بن الفحيل وعمرو بن الحجاج، وكان لهما فضل في رياستهما، فقال ابن الفحيل: يا معشر زبيد، إن كنتم دخلتم في هذا الدين راغبين فحاموا عليه، أو خائفين من أهله فتحصّنوا به ولا تظهروا للناس من سرائركم ما يعلم الله فيظهروا عليكم بها. ولا أبلغ من نصحي لكم فوق نصحي لنفسي، اعصوا عمرو بن معد يكرب، وأطيعوا عمرو بن الحجاج، وقال في ذلك شعرا منه هذه الأبيات. ينظر الإصابة:٤/٥٥٥.

وَدَلِيْلاً يَدْعُو الْعِبَادِ إِلَى الـــلَّهِ وَبَحْراً يَصُبُّ عَذْبَ الْمَذَاقِ
وَضِـــيَاءَ الْبِلَادِ وَالْقَـــمَرَ الزَّا هِرَ وَافَى تَمَامَهُ لِاتِّسَاق

يعد مطلع هذه المرثية من أجود مطالع المراثي وأبرعها لسهولته، ويسره وموسيقاه، ووضوح معناه ودلالته على المقصود، ويعد سر جماله في التكرار، حيث تكررت (الراء والقاف) بينهما حركات مد طويلة يرتاح عندها صوت المنشد، وتأنس إليها ترانيمه الخافتة، وقد وقع ذلك في الكلمات: (**الزَّقْرَاقِ** و **فِرَاقِ** و**الْفِرَاقِ**). وكانت حركات المد الطويلة قد وقعت مرتين قبلاً في كلمة (**أَسْعِدِينِي**) فزادت من طراوة البيت، وكان للتصريع والقافية المكسورة المطلقة جرس رقيق لين أسدل على البيت من الحنين والأسى ما أسدله، فرأينا في هذا المطلع الدموع متحدرة صافية صفاء سريرة صاحبها، حارّة حرارة صدره المكلوم، مُرّة كمرارة العلقم، وشعرنا بها كأنها تنساب من فؤاده كما تنساب من عينيه، وقد قيل: إن نظم اللسان في حقيقته نظم لما تجيش به الضمائر، وتغلي به القرائح، والنمط السوي من هذا النظم ما كان نقياً نقاء هذه الخواطر الدافقة في القلوب، متلاحقاً تلاحق الأفكار الملتهبة في الرؤوس، متجانساً تجانس الأنباض المهتاجة في الصدور.. [1]

فهو يرجو من عينيه التي امتلأت بالدمع ويخاطبها أن تجود عليه به علّه يخفف عنه شدة ما يجده من فراق النبي ﷺ في هذا اليوم، حيث جعل استجابتها له بسيلان دمعها سبباً في سعادته وتخفيفاً من ألمه، وصوّرها في صورة بشر يحاكيه ويطلب منه إسعاده، وجعل إسعاده بمظهر من مظاهر الحزن غالباً وهو سيلان الدمع، وكأنه لا يجده من شدة الألم الذي أحاط به فكأنما جمدت عيناه.

١ – ينظر دلالات التراكيب:٣٧٣، والمراثي النبوية:٣٧٦. والنبض: التحرك والضرب، والإنباض: أن تمد الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتا. لسان العرب: (نبض).

وبفراق النبي فكأنما عمّ الظلام وأطبق على الأرض وقد أسدل الليل بستره وبظلمته، ولذا أكد حزنه على فراق النبي وبقائه بأكثر من مؤكد في قوله: **(إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسُولِ لَبَاقِي)**.

ثم هو يتمنى أن يكون قد مات يوم موت النبي ولم يواجه تلك المصائب التي يلاقيها ولم يسمع بهذا الخبر المزلزل، فهي مع كثرتها جعلته يتمنى الموت أكدّ ذلك تعبيره بقوله: **(مَا أَنَا لَاقِ)** وكأنه وحده الذي واجه تلك المصائب، مما يدل على شدتها وكثرتها. ولم يعد للدنيا معنى بعد فراق النبي ﷺ.

ويجعل من التشبيه البليغ أداته لبيان منزلة النبي ﷺ ومن كانت فيه تلك الصفات التي شبهه بها استحق البكاء عليه طوال لدهر. فيقول: **(كَانَ غَيْثًا يَجِئُ لِلْبَلَدِ الْمَحْلِ وَشَمْسًا تُضِئُ لِلْإِشْرَاقِ)** حيث يشبهه بالغيث العظيم الذي عمّ تلك الأرض الجدباء، وكان شمساً أضاء لهم جميع أركانهم وأخرجهم من ظلمات القبلية والنزعة العرقية التي كانت سائدة فيهم، ودليلاً هادياً لهم إلى طريق الله تعالى وإلى دينه، فقد انتشرت المنكرات والمعاصي بجميع أشكالها بين سكان الجزيرة العربيّة، فاستحلّوا الخمر والزّنا وكلّ مساوئ الأخلاق، كما عبدوا أصناماً من حجارة صنعوها بأيديهم لتقرّبهم إلى الله تعالى بزعمهم، فجاء الإسلام بنوره ومنهجه الرّباني ليحَرِّم تلك الأفعال والمنكرات جميعها، وليؤسّس منهجاً ربّانياً كاملاً في التّشريع والأخلاق كفيلاً بأن يحقّق السّعادة للناس جميعاً في الدّنيا والآخرة.

فالتشبيه البليغ ألطف الطرق للإبانة عن المراد، وخير الأساليب للتعبير عن الأفكار، فهو يجمع بين البيان والمبالغة والإيجاز، وقد أشار العلماء قديماً إلى أهميته فالسكاكي –رحمه الله– عدّه أقوى الكلام، وعدّه (محمد بن علي الجرجاني) أقوى مراتب التشبيه حيث يقول: " أقوى مراتب التشبيه: حذف وجهه وأداته معاً، لأن ذكر الأداة يدل على ثبوت مزية للمشبه به على المشبه، التي باعتبارها استحق أن يشبه به دون العكس، فحذفها يوهم عدم تلك

المزية، وذكر وجه الشبه يدل على انتفاء وجه آخر له، فحذفه يوهم عموم التشبيه في جميع صفات المشبه به.." [1]

وفي كرمه وكثرة جوده واستمرار عطائه جعله **(بَحْراً يَصُبُّ عَذْبَ الْمَذَاقِ)** فعطاؤه ونفعه مستمر وإلى قيام الساعة أكّد ذلك مضارعية الصيغة في قوله: **(يَصُبُّ)**.

ويشبهه بالضياء وبالقمر في قوله:

(وَضِـــيَاءَ الْـبِلَادِ وَالْقَـــمَرَ الزَّاهِـرَ وَافَـى تَمَامَـهُ لِاتِّسَـاق) فالنبيﷺ معروف بفضله بين الناس جميعاً فهو الضياء الذي ينتفع به وبضوئه الجميع.

وهنا يشير شاعرنا من طرف خفي إلى العلاقة بين الليل بظلامه الدامس والبؤس النفسي الذي يعيشه جراء تجربة الفقد والحزن الشديد التي ألمّت به، محاولة تبديد هذه الظلمة الحالكة والوحشة التي يعيشها بإيجاد مساحات نفسية مشرقة بواسطة التشبيه البليغ، وهذا ما فعله عندما شبه النبي بالغيث والشمس، والهادي والبحر، والضياء والقمر الزاهر الذي يبرز بريقه بالليل، وفي تنكيرها دلالة على عظم منزلته وفضله مما يبين شدة الألم والحزن على فقده.

كما أسهم التشبيه في تجسيد لحظات الضعف الإنساني عند الشاعر وإبراز تجربة حزنه بنقل ما يعانيه من الداخل إلى ما يبصره أو يقع تحت حواسه في الخارج، فصورة المشبه به من بيئته ومن عناصر الطبيعة الموجودة حوله والتي لا غنى له عنها في ليل أو نهار، فهو يعرف قيمة الغيث إذا جدبت الأرض وهو الذي يعيش في تلك الصحراء القاحلة، ويعرف قيمة الشمس إذا غابت فما كان للأرض أن تنبت، وما كان له أن يهتدي إذا فقد الدليل، وأطبق الليل بظلامه الدامس ولم يجد ضوء القمر. مما يدل على عظم منزلة المفقود وشدة الألم على فقده.

---

١ – ينظر مفتاح العلوم: ٣٥٥، والإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة:١٨٠، لمحمد بن علي الجرجاني، ت د/عبد القادر حسين، مكتبة الآداب بالقاهرة،١٩٩٧م.

وتوالي التشبيهات في الأبيات يدل على امتلاء نفس الشاعر بالمعاني التي يريد أن يصف بها النبي ﷺ مما يوحي كل ذلك بمرارة الفقد وعظم المصاب.

ومن ذلك قول كَعب بن مالك: [1]

يَا عَـيْنُ فَابْكِي بِدَمْـعٍ ذَرَى خَـيْرِ الْـبَـرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى
وَابْكِي الرَّسُولَ وَحُقَّ الْبُكَاءُ عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا
عَلَى خَـــيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ وَأَتْـقَى الْبَـرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى
عَلَى سَـــيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْـفَلٍ وَخَـيْرِ الْأَنَامِ وَخَـيْرِ اللَّهَا[2]
لَهُ حَسَبٌ فَوقَ كُل الأنَـــا مِ منْ هاشمٍ ذلكَ المرْتَجَى
نُخَصّ بما كَانَ من فَضْـلِهِ وكَانَ سِرَاجًا لنَا في الدّجَى!
وكَانَ بَشِـــيرًا لَنَا مُـنْذِرًا وَنُورًا لَنَا ضَوءُهُ قدْ أضَا
فأنْقَـذَنَا اللهُ في نُـــورِهِ ونَجّى برَحْمَتِهِ من لَظَى!

فقد كانت فاجعة الإسلام والمسلمين عند فقد رسول الله ﷺ وقد بكاه كل من عرفه، وفي هذه المرثية يفتتحها شاعرنا بالنداء المشفوع بالأمر فينادي عينه بأداة النداء "**يا**" والتي يتناسب جرسها ومدّها مع المقام وما يجده في نفسه من حسرة وألم على فراق النبي وصوّرها في صورة شاخصة أمامه كأنه بشر يحاكيه ويطلب منه بغيته، فالتشخيص يُعَد من أقوى أركان الصورة الشعرية وأعمدتها، وقد أشار إليه الإمام عبد القادر الجرجاني– رحمه الله– عند حديثه عن الاستعارة حيث يقول: " فإنك لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً، .. إن شئت

---

١ – ينظر الطبقات الكبرى:٢٤٧/٢. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م.

٢ – مجد الرجل:عظم كرمه فهو ماجد. (أساس البلاغة: مجد). الرجل الجحفل: العظيم القدر (تاج العروس: جحفل). واللها: أفضل العطاء وأجزله، واحده لهية ولهوة (المحيط في اللغة: لهو).

أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلاّ الظنون"[١]

فيناديها ويلتمس منها أن تجود عليه بالدمع الكثير ليقابل ذلك كثرة ما يجده من الحزن والألم على فراق خير البرية المصطفىﷺ قوّى ذلك تنكير **(دَمْع)**. وقد ذرفت عيناه الدمع بل كان يستزيدها ويأمرها بالبكاء عليه، فهو الوحيد الذي يستحق البكاء عليه، فالمصيبة دونه أهون، وألم الفقد في غيره أيسر فيقول: **(وَابْكِي الرَّسُولَ وَحُقَّ الْبُكَاءُ عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا)**، ويكني عن رفعته وشجاعته بقوله: **(عَلَى خَـــيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ وَأَتْـقَى الْبَـرِيَّةِ عِنْدَ التُّــقَى)** فهو خير من ركب ناقة وأتقى الأتقياء وأشجع الشجعان، فهو مكمل بالأخلاق والجد، حيث كان يتقدم إلى جهاد المشركين دون وجل أو خوف، فهو رجل الأخلاق والحرب معاً، وهو عظيم الكرم والجود، عظيم القدر والمنزلة، وهو أفضل العطاء وأجزله، وفي ذكر هذه الصفات وتعدادها للنبي ما يدل على رفعته وعلو شأنه وعظم مصابهم، فهو يعدد خصال المرثي ويسجل مناقبه، ولفقد هذه المآثر وتلك المناقب ألحّ شاعرنا على عينيه أن تبكيا رسول الله ﷺ بدمع منهمر ومن ثمّ استحق أن يبكيه ويذري عليه الدمع فلا يستحق أحد البكاء عليه بعده. ففقد الرسول ليس بالشيء الهين، "فالمصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي وماتت النبوة. وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه." [٢]

ويذكر فضل النبي ﷺ عليهم، وقد اختص بأن حسبه فاق كل الخلق، أكد ذلك أسلوب القصر في قوله: **(لَـهُ حَسَبٌ)** والتعريف بالإشارة **(ذَلِك)** مما يدل على

١ – ينظر أسرار البلاغة:٤٣. وقضايا في النقد والشعر:٣٤، د/يوسف حسين بكار، دار الأندلس، بيروت، ط١ ١٤٠٤هـ.

٢ – تفسير القرطبي:١٧٦/٢.

رفعته وعلوّ شأنه، وقد كان هداية لهم وكان بشيراً ونذيراً، أنقذهم الله بما أرسله به من الإسلام فنجَّاهم من النار، وصوّر ذلك بأسلوب التشبيه فقد شبهه بالسراج في قوله: **(وكَانَ سِرَاجًا لنَا في الدّجَى)** حيث هداهم وهدى البشرية إلى الصراط المستقيم، ثمَّ جاء بقوله **(لَنَا)** الذي يدل على اختصاصهم بنور النبي ﷺ، ولكي يدل على تمام النور وعظيم نفعه جاء بقوله: **(في الدّجَى)** لأن السراج لا يظهر كاملاً ولا تعظم فائدته إلا في دياجي الظلمات؛ لأنَّ الضِّدَّ يظهر حسنَه الضِّدُّ، فالظلمة تظهر النور .

ويُعتَذر عن تخصيص كعب قومه بنور النبي ﷺ في قوله: **(سِرَاجًا لنَا)** مع أنَّه من كمال المدح وتمامه المدح بعموم الفضل – بأنَّه قد يكون المقصود بـ **(الدّجَى)** النوازل والشدائد وعظائم الأمور على سبيل الاستعارة الأصليَّة التصريحيَّة، أو لعل المقصود بها الحرب، خاصة وأنَّه ذكرها في بيت سابق لهذه الأبيات، حيث يقول:

وَابْكِي الرَّسُولَ وَحُقَّ الْبُكَاءُ عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللّقَا

فيكون مقصده أنَّهم اختصوا ببركة النبي ﷺ ودعائه وتوجيهه في المحن والكربات والحرب، وأنَّ رأيه وتوجيهه فيها يكشفها ويزيلها كما يهدى السراج من يسترشدُ به في الظلمات، وكلمة الدجى استعارة للضلال، أو الكربات والشدائد أو الحرب. [1]

إلا أن حمل **(الدّجَى)** على الاستعارة لا يعفي شاعرنا من أن يؤخذ عليه أن من كمال المدح وتمامه المدح بعموم الفضل لا بتخصيصه كما فعل، ومما يؤكد هذا المأخذ تخصيص قومه في البيت الذي يليه: **(وكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا وَنُورًا لَنَا ضَوءُهُ قَدْ أضَا)** حيث جعله بشيراً ومنذراً ونوراً لهم، والله جل وعلا قد أرسله للعالمين بشيراً ونذيراً.

١ – ينظر: التصوير البياني عند شعراء الرسول:١٦١.

وجاء الطباق في قوله: **(وكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا)** ليبين رسالة النبي ﷺ فقد أرسله ربه هادياً ومبشراً برضوان الله لمن أطاعه ومنذراً بغضبه لمن عصاه، وفي تقديم البشرى على الإنذار تأثراً بما ورد في القرآن الكريم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" الأحزاب:٤٥. لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ومن باب تقديم الرحمة على الغضب، ولأن النفس جُبلت على حب ما يفرح ويسر، وكراهية ما فيه تخويف وإنذار. وفي تنكيرهما دلالة على عظم ما بشّر به وأنذر.

ويشبّه النبي ﷺ بالنور في قوله: **(وَنُورًا لَنَا ضَوءُهُ قَدْ أَضَا)** وهذا التَّشبيه وثيق الصلة بالشطر الأول **(وكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا)** فكونه بشيراً ومنذراً يجعلهم بالتبشير والإنذار يلتزمون الطريق المستقيم الذي أراده الله لهم. فهو في ذلك كالنور الذي يهدى الناس ويحفظهم من العثرات والانحراف عن الجادة. والتعبير بالفعل **(أَضَا)** مقصوراً دون همز؛ لأنَّ صوت الألف الممدود مفتوح فكأنَّ المدَّ الناشئ عن قصر الفعل يوحي باستمرار نور النبي ﷺ وانتشاره بخلاف ما لو أتمَّ الفعل فقال: **(أَضَاء)** فسكون الهمزة يفوّت هذا الإيحاء.

وجاء قوله: **(فأَنْقَذَنَا اللهُ في نُورِهِ ونَجّى برَحْمَتِهِ من لَظَى!)** بمثابة نتيجة للمقدمات التي ذكرت قبله، فإنقاذهم بسبب نور النبي ﷺ الذي هو مسبَّبٌ عن تبشيره وإنذاره وهدايتهم واستجابتهم لما أمر الله به ونهى. وفى البيت استعارة في قوله: **(نُورِهِ)**، حيث استعار النور لما جاء به النبي ﷺ من هدى وصلاح من الله بجامع الهداية والإرشاد واستخدام **(في)** الظرفية دون الباء **(في نُورِهِ)** يعطى للصورة ظلالاً رائعةً، فالعدول عن الباء مع ما فيها من معنى السببية إلى **(في)** يوحي بأنَّ هذا النور أحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف وكأنَّه سفينة نجاةٍ أنقذتهم وحملتهم إلى شاطئ النجاة وبرِّ الأمان، حيث نجاهم من العذاب الأليم.[1]

١ – ينظر المرجع السابق:١٦٢.

ومن ذلك قصيدة أنشدها الرياشي لرجل من غطفان من بني عبد الله، كانت له صحبة، قتل يوم جلولاء يقال له سالم، يرثي رسول ﷺ: [1]

أَفَاطِمُ بَكّي وَلا تَسْـأَمِي بِصُبْحِكِ مَا طَـلَعَ الْكَوْكَبُ!
فَقَدْ هُـدَّتِ الْأَرْضُ لَمَّا ثَوَى وَأَيُّ الْـبَـرِّيَّةِ لَا يُنْكَـبُ
فَمَا لِيَ بَعْدَكَ حَتَّى الما ت إِلَّا جَوَى دَاخِلٌ مُنْصِبُ[2]
جَوَى حَلّ بَيْنَ الْحَشَا وَالشَّغَافِ فَخَيَّمَ فِيهِ، فَمَا يَذْهَبُ[3]
فِيَا عَيْنُ وَيْحَكِ لَا تَسْأَمِي وَمَا بَالُ دَمْعِكِ لَا يُسْكَبُ!
وَقَدْ بَانَ مِنْكِ الَّذِي تَعلَمِيْنَ وَضَاقَتْ بِكِ الْأَرْضُ وَالْمَذْهَـبُ
وَمَنْ ذَا، لَكِ الْوَيْلُ، بَعْدَ الرَّسُولِ يُبَكَّى مِنَ النَّاسِ أَوْ يُنْدَبُ؟
فَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ خَيْرَ الْأَنَامِ كَثِيرَ الْفَوَاضِـلِ لَا يُجْـدِبُ
وَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ سَهْلَ الْجَنَا بِ مَحْضَ الضَّرَائِبِ لَا يُؤْشَبُ[4]
وَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ نُورَ الْبِلَا د ضَخْـمَ الدَّسِيْعَةِ لَا يَحْسِـبُ[5]
وَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ خَيْرَ الْأَنَامِ سَرِيعَاً سَـوَابِلُهُ مُخْـصِـبُ[6]
وَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ وَارِي الزِّنَادِ صَـدُوقَ الْمَـقَالَةِ لَا يَكْـذِبُ

---

١ – ينظر التعازي:٢٩٦،٢٩٥.

٢ – الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن. والنصب: الإعياء من العناء. لسان العرب: (جوا، نصب).

٣ – الشغاف: غلاف القلب، وهو جلدة دونه كالحجاب. لسان العرب: (شغف).

٤ – الضريبة: الطبيعة والسجية والخليقة. ومحض الضريبة: خالص الخَلْق، كريمه. ينظر تاج العروس: (ضرب)، لا يؤشب: الأشابة من الناس الأخلاط. أي: لا يعاب. ينظر لسان العرب: (أشب).

٥ – الدسيعة: مائدة الرجل إذا كانت كريمة. لسان العرب: (دسع).

٦ – سوابله: السوابل. جمع سابلة. وهم المختلفون في الطرقات لحوائجهم. ويقال: أسبل المطر: أي أرسل دفعه وتكاثف كأنما أسبل ستراً. ينظر: أساس البلاغة: (سبل).

افتتح مرثيته بمخاطبة الثكلى من آل البيت فقال: **(أَفَاطِمُ بَكِّي وَلَا تَسْأَمِي بِصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الْكَوْكَبُ!)** حيث يلتمس منها البكاء فناداها بأداة النداء الموضوعة للقريب (الهمزة)، للدلالة على قربه من النبي ﷺ وآله، فهم في قلبه ووجدانه، وإن كان الترخيم في المنادى معروفاً ولذا حذفت التاء من فاطمة، وكأني به من شدة حزنه وألمه وشدة وقع المصيبة عليه ومفاجأتها له لم يستطع إكمال الاسم.

ويلتمس منها تكرار البكاء وعدم الفتور والملل أكّد ذلك تضعيف الفعل: **بَكِيّ**. ووصله بالنهي بقوله: **(وَلَا تَسْأَمِي)**. ويدل على شدة صدمتهم وفجأتهم من أول النهار، وعلى تلك اللحظة الأليمة التي مرت بهم، وهم ما زالوا في نومهم وسباتهم واستيقظوا على وقع تلك المصيبة قوله: **بِصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الْكَوْكَبُ!**.

ويكنّي عن شدة وقع المصيبة عليهم، حتى الجمادات شاركتهم فيها حزناً على فراق النبي ﷺ وذلك في قوله: **(فَقَدْ هُدَّتِ الْأَرْضُ لَمَّا ثَوَى وَأَيُّ الْبَرِيَّةِ لَا يُنْكَبُ)** فقد هدمت الأرض وتكسرت وانصدعت حزناً لفراقه لمّا دفن فيها، وكل من عليها أصابته مرارة الفراق. وقد تمكن الحزن منه فلا يفارقه، وقد كنّى عنه بقوله: **(جَوَى حَلَّ بَيْنَ الْحَشَا وَالشَّغَافِ فَخَيَّمَ فِيهِ فَمَا يَذْهَبُ)**.

ويخاطب عينه بأن لا تسأم من البكاء عليه، حيث يعجب من عدم سكب الدمع، ولِمَ لا؟ وقد رأت ما حلّ بهم، فلا يستحق أحد البكاء عليه بعد النبي ﷺ فمصيبة فقده أعظم، وما عداها لا يُعدّ شيئاً مقارنة بها.

ولقد أراد الشاعر أن يحتال بحيلة فنية تكون سبباً للإفاضة في نعوت النبي ﷺ والثناء عليه فوجد في الشرط بغيته، فهو يظهر لنا بمظهر من تتمنع عينه عليه فلا تطاوعه كلما دعاها إلى البكاء، وهو يحاول مع كل بيت، ومع كل جملة شرط استدراجها إليه، ومن تلك الأساليب التي دارت في الرثاء **(التكرار)**، وفي هذا التكرار استجاشة واستنهاض لعينه بدوام البكاء، ومن مثاله: تكرار جملة الشرط " **إِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ** " خمس مرات، حيث عدد مناقبه ﷺ

متوجهاً بالخطاب إلى ذاته قائلاً: إن من تبكه هو خير الخلق أجمعين، وشبهه بالأرض التي لا تجدب، فهي مستمرة العطاء. ثم استرسل في عرض أنموذجان ممن فقدوا بموته ملجأهم ومأواهم، فهم أهل النهى والحجا، والطارق الأخيب الذي خاب أمله في تحصيل ما يسد به رمقه، وخماص البطون ممن وضعوا الحجارة على بطونهم من شدة الجوع. [١]

وكرر – أيضاً – فعل البكاء عشر مرات تكراراً ملأ القصيدة بالنشيج والعويل، فكل شيء يبكي، وكل باك يقود إلى باك غيره، وكأن قد غدا بكاء الكائنات شيئاً لا محيص لهم عنه، فالحزن قد عمّ كل شيء حيث جاوز الناس إلى الكائنات، وكأنها قد جزعت هي الأخرى لفراق النبي ﷺ. فهو يقول:

فَبَكِّي الرَّسُولَ! وَحُقَّتْ لَهُ شُهُودُ الْمَدِينَةِ وَالْغُـيَّبُ!
وَتَبْكِي لَهُ الصُّمُّ، صُمُّ الْجِبَالِ وَشَرْقُ الْمَدِينَةِ وَالْمَغْرِبُ
لِتَبْكِيكَ شَمْطَاءُ مَضْرُورَةٌ إِذَا حُجِبَ النَّاسُ لا تُحْجَبُ
لِيَبْكِيكَ شَيْخٌ أَبُو وِلْـــدَةٍ يَطُـوفُ بِعِقْـوَتِهِ أَشْـيَبُ[٢]
وَيَبْكِيهِ أَهْلُ النُّهَى وَالْحِجَا مِنَ النَّاسِ وَالطَّارِقُ الأَخيَبُ[٣]
وَيَبْكِيهِ ضَيْفٌ جَفَّاهُ الصَّدِيقُ وَذُو النَّسَبِ الدَّاخِلِ الْأَقْرَبُ
وَيَبْكِيهِ شَعَثٌ خِمَاصُ الْبُطونِ أَضَـرَّ بِهِمْ زَمَـــنٌ أَنْكَبُّ
وَيَبْكِيكَ رَكْبٌ إِذاً أَرمَـــلُوا فَلَمْ يُلْـفِ مَا طَـلَّبَ الطُّلَّبُ[٤]

١ – ينظر مراثي القادة المسلمين حتى نهاية العصر الراشدي:٣١، د/ طراف طارق النهار، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠١٨م.
٢ – العقوة والعقاة: الساحة وما حول الدار. لسان العرب: (عقا).
٣ – النهى والحجا: العقل والفطنة. والخيبة: الحرمان والخسران. ينظر المرجع السابق: (نهي، حجا، خيب)
٤ – الرمل: الهرولة والإسراع في المشية. المرجع السابق: (رمل).

وَتَبْكِي الأَبَاطِحُ مِنْ فَقْدِهِ وَتَبْكِيهِ مَكَّةُ وَالأَخْشَبُ[1]
وَتَبْكِي وُعَيْرَةُ مِنْ فَقْدِهِ بِحُزْنٍ وَيُسْعِدُهَا الْمِيثَبُ![2]
فَعَيْنَيَّ مَا لَكِ لا تَدْمَعِينَ؟ وَحُقَّ لِدَمْعِكِ يُسْتَسْكَبُ!

وكأن الشاعر يقول: أجل، فعيني ما لك لا تبكين؟ فبكى كل من حولك ولم يبق إلا أنت؟! وهذا يوحي بأن الخَلْق لم يتملكهم في تلك الساعة إلا شعور واحد، ألا وهو شعور الحزن والأسى، وكأن الشاعر بهذا الأسلوب الذي اتبعه يريد لقلبه مع كل بيت ألا ينسى، ولعينه أن لا تكفكف دموعها.

١ – الأباطح: جمع أبطح وهو مسيل الوادي والأخشب جبل بمكة. المرجع السابق: (بطح. خشب).

٢ – الوعيرة: حصن في جبل الشراة. والميثب: جبل بالمدينة. معجم البلدان: الواو مع العين.

المبحث السادس

أثر فجيعة موته على الصحابة

كان موت النبي ﷺ خطباً كالحاً، ومصاباً لأهل الإسلام فادحاً، كادت تُهد له الجبال وترجف الأرض، وتُكسف النيرات لانقطاع خبر السماء وفقد من لا عوض منه، مع ما آذن به موته ﷺ من إقبال الفتن.

وقد اضطرب المسلمون اضطرابًا شديدًا، حتى ذهل بعضهم فلا يستطيع التفكير، وقعد بعضهم لا يستطيع القيام، وسكت بعضهم لا يستطيع الكلام، وأنكر بعضهم لا يستطيع التصديق، يقول ابن رجب–رحمه الله: ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقْعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية. وكان لذلك أثر عظيم على نفوس الصحابة وحالهم؛ فقد ورد عن السيدة عائشة– رضي الله عنها – أنها قالت: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقدهم نبيهم ﷺ.[1] وقد ظهر أثر ذلك وصوره الصحابة في مراثيهم، وقد ورد هذا المعني في ثمانية مواضع، ومن ذلك قول حسان بن ثابت: [2]

آلَيتُ حِلْـفَةَ بَرٍّ غَـيرَ ذِي دَخَلٍ مِنّي، أَلِيَّةَ حَقٍّ غَيرَ إفْـنَادِ! [3]
باللهِ ما حَمَلَتْ أنْثى وَلاَ وَضَعَتْ مِثْلَ النبيّ رَسُولِ الرّحْمَةِ الهَادِي

---

١ – ينظر إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر في زيارة النبي ﷺ:١٦٠، لعبد الصمد بن عبد الوهاب بن أبي الحسن محمد بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أمين الدين أبو اليمن بن عساكر الدمشقي نزيل مكة (المتوفى: ٦٨٦هـ)، ت: حسين محمد علي شكري، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة: الأولى.بدون. ولطائف المعارف:١١٠.

٢ – ديوان حسان بن ثابت: ٩٩، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٢٩م. والروض الأنف:٥٦٧/٧، والاكتفاء:٧٥/٢.

٣ – الألية: اليمين والحلف. والإفناد: العيب والخطأ، والتكذيب وتضعيف الرآي.

وَلا مَشَى فَوق ظَهْرِ الأَرْضِ مِن أحَدٍ أوفَى بِذِمّـةِ جَـارٍ أَو بِمِيعَادِ
مَن الّذِي كانَ نُورًا يُسْـتَضاءُ بِهِ مُـبَارَكَ الأَمْـرِ ذَا حَـزمٍ وإرْشَادِ
مُصَـدّقًا لِلـنَّبِيّينَ الأُلَى سَـلَفُوا وأَبْذَلَ النّاسِ لِلْمَعْروفِ لِلْجَـادِي
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ جَارٍ فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمُفْرِدِ الصَّادِي!
أَمْسَى نِسَاؤُكَ عَطَّلْنَ الْبُيُوتَ فَمَا يَضْرِبْنَ خَلْفَ قَفَا سِـتْرٍ بِأَوْتَادِ
مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ الْمُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادِي[1]

ففي هذه المرثية نرى صدق العاطفة متمثلاً في الأنفاس المكروبة القصيرة والتي انعكست على الأبيات في الإيجاز وقصر المقاطع المتمثِّل في الأسلوب الإنشائي دون الخبري، حيث يفتتح مرثيته بالقسم المؤكد والمكرر ليبيّن صدقه، أكّد ذلك وقوّاه وبينه الطباق في البيت وذلك في مطلع مرثيته: **(آلَيتُ حِلْـفَةَ بَرٍّ غَـيرَ ذِي دَخَلٍ مِنّي، أَلِيَّةَ حَقٍّ غَيرَ إِفْـنَادِ!)** ليصل بذلك لبيان رفعة وعلوّ شأن النبي ﷺ ومن ثَمَّ عظم الفاجعة التي حلّت بهم بفقده، فلا توجد أنثى على ظهر الأرض قاطبة حملت ولا وضعت كالنبي الذي أرسله ربه رحمة للعالمين والهادي للصراط المستقيم، أكّد ذلك تنكير **(أنْثى)**. وهو يعبر عن أدق الأحاسيس والمشاعر في وداع النبي ﷺ وقد فارق الحياة بعد أن أتم مهمته، وبلّغ رسالة ربه، ولعل عظم المصيبة في هذا الوقت هو الذي عقد ألسنة الصحابة وأذهب عقولهم، فانطلق شاعر الرسول ﷺ يرثيه ويعدد فضائله التي لا تحصى، ويؤكد ذلك بالقسم الذي صدّر به مرثيته، وللمبالغة في وفائه يبين أنه لا يوجد أحد على ظهر الأرض كلها أوفى بالعهد منه ﷺ.

---

١ – المفرد الصادي: الصدى: الذكر من البوم، والصَّدَى: طائِرٌ يَصِيحُ فِي هامَةِ المَقْتُولِ إِذَا لَمْ يُثْأَرْ بِهِ، وَقِيلَ: هُوَ طائِرٌ يَخْرُجُ مِنْ رَأْسِهِ إِذَا بَلِيَ، ويُدْعَى الهامَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ يزعُم ذَلِكَ أَهلُ الجاهِلية. ينظر اللسان: (صدى). و قَفَا سِـتْرٍ: أي خلفه ووراءه، والمسوح جمع مسح وهو الكساء من الشعر، والبادي أي الظاهر. ينظر ديوان حسان: ١٠٠.

ويصوره وهدايته وإرشاده بالنور، فالمرثي هنا معروف بفضله ومنزلته بين الناس جميعاً فهو كالنور الذي ينتفع به الجميع. وهنا يشير من طرف خفي إلى العلاقة بين الظلام الدامس والبؤس النفسي الذي يعيشه جراء تجربة الفقد ومحاولة تبديد هذه الظلمة الحالكة والوحشة التي يعيشها بإيجاد مساحات نفسية مشرقة بواسطة تشبيهه بالنور. وفي تنكير **(نُورًا)** ما يدل على عظمه ورفعته.

والتشبيه صورة من صور التَّشبيه البليغ الاصطلاحية وقع فيه المشبه به خبراً لكان، وقد أعان النظم على إظهار الصورة فتنكير كلمة "**نوراً**" للتعظيم والتكثير، وبناء الفعل للمجهول مع إفادته الإيجاز يفيد أيضا الدلالة على عموم المنتفعين به لعموم هدايته ونفعه ورحمته بالمسلمين وغيرهم، كما أن الصيغة " **يُسْتَضاءُ**" تدل على الحرص على التزود من هذا النور وتهافت الناس عليه فالسين والتاء يفيدان الطلب.

وفي حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول مع ما فيه من الإيجاز يدل على عموم وشمول هدايته للناس جميعاً، كما أن هذا النور في ازدياد، فكلما مر الزمان ارتفع شأن النبي ﷺ وزاد اتباعه وهو ما عبَّر عنه حسان بقوله: "**مُبَارَكَ الأَمْـ**"[1]

ويُلحَظ أنَّ حسَّان بن ثابت استخدم الفعل **(كانَ)** الذي يدل على المضي مع أنَّ نور النبي ﷺ مستمرٌ إلى يوم القيامة، والذي حسَّن المعنى مع دلالته على الماضي أنَّه يأتي في مقام الرثاء "فذِكر ما كان من الأموات في الماضي لازمة من لوازم الرِّثاء بكافة أنواعه".[2]

١ – ينظر التصوير البياني عند شعراء الرسول:١٥٩، للباحث/طاهر عبد المنعم علي أبو يوسف، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية – بإيتاي البارود– جامعة الأزهر.

٢ – رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي:٢٨٩، عبد الله عبد الرحيم السوداني، ط المجمع الثقافي أبو ظبي ١٤٢٠هـ /١٩٩٩ م.

ويحذف أداء النداء في قوله: **(خَيْرَ الْبَرِيَّةِ)** فالمقام لا يستدعي الذكر، وفي حذفها دلالة على قربه منه وعلوّ منزلته، وأنه لا يفارقه فإن فارقه بجسده إلا أن حبه له واتباع نهجه وتمسكه بدينه ملازم له، ثمَّ يصور حالته في حياة النبي ﷺ وحالته بعد قبضه مؤكدًا هذا الخبر بأكثر من مؤكد فيصورها بصورتين، الأولى: بالاستعارة التمثيلية في قوله: **(إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ جَارٍ)** حيث شبه حالته، وقد كان يتزود وينهل من فضل وكرم وعلم وخلق ودين النبي ﷺ بهيئة من هو في نهرٍ جارٍ فلا يظمأ أبداً، والتعبير بالنهر يبعث البهجة في القلوب الآيسة، فبه يكون إحياء الموات، وفي فقده دلالة على عظم مصيبتهم، ووصف النهر بالجريان يبين تجدده ويوحي بفداحة مصابه وسوء الحال التي وصل إليها، والصورة الثانية: بالتشبيه في قوله: **(فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمُفْرِدِ الصَّادِي)** حيث صور حالته بعد قبض النبي ﷺ بحالة طائر (الهام) الخرافي الذي يصيح دائماً بسبب عطشه كما كانوا يزعمون حتى يُثأر للقتيل. مما يبين عظم الفارق بين الصورتين، وقد أكد ذلك الطباق بين **(كُنْتُ** و **أَصْبَحْتُ)**.

وإذا كانت تلك حالته فحالة أمهات المؤمنين ليست بأفضل منه، وقد ظهر أثر البؤس والحزن والألم عليهن وتجاوز ذلك لبيوتهن، حيث صارت معطلة، ولم تعد مقصداً لأحد، وكأن الحجاب المضروب على الحجرات لم يعد قائما بل مرفوعاً مثبتاً بأوتاد فيقول: **(أَمْسَى نِسَاؤُكَ عَطَّلْنَ الْبُيُوتَ فَمَا يَضْرِبْنَ خَلْفَ قَفَا سِتْرٍ بِأَوْتَادِ)** وفي ذلك كناية عن ترك الزينة والطيب وغير ذلك مما كنَّ يفعلنه في حياة النبي ﷺ لأجله، والذي كان يتطلب الستر واتخاذ الحجب، أما وقد فارق النبي الحياة فلا حاجة لذلك، وإذا كانت تلك حالة البيوت فحال ساكنيها أشد، حيث صورهن بصورة الراهبات اللاتي تركن الدنيا والاستمتاع بلذاتها وشهواتها، فلبسن الخشن من الثياب ولازمن الزهد فيها والعزلة عن أهلها فيقول: **(مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ الْمُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادِي)** وصار فراق النعيم لهن بفراق النبي ﷺ أمر مؤكد قوّى ذلك التعبير بـ

(**قد**) والفعل: (**أيقن**). والطباق بين البؤس والنعمة بيّن عظم الفارق بين الحالتين.

ومن ذلك قول عبد الله بن مالك الأرحبي: [1]

لَعَمْرِي لَئِنْ مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ لَمَا مَاتَ يَا ابْنَ الْقَيْلِ رُبُّ مُحَمَّدٍ[2]

ومَا كَانَ إِلَّا مُرْسَلاً برسَالةٍ لِيُبَلِّغَهَا والحَادِثَاتُ بِمَرصَدِ

ولَمَّا قَضَى مِن ذَاكَ مَا كَانَ قَاضِياً وَلَمْ يَبْقَ شَيءٌ فِيهِ إِلحَادُ مُلْحِدِ

دَعَاهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ فَأَجَابَهُ فَيَا خَيْرَ غُورِيّ وَيَا خَيْرَ مُنْجِدِ[3]

ومَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَرِيقَيْنِ شَتَّى كَافِرٍ وَمُوَحِّدِ

وَنَحْنُ عَلَى مَا كَانَ بِالْأَمْسِ بَيْنَنَا مِنَ الدِّينِ نَهْدِي مَنْ أَرَادَ فَيَهْتَدِي

ففي هذه المرثية بدأ الشاعر بالقسم وأتبعه بالشرط (**لَعَمْرِي لَئِنْ مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ**) ليبين ويؤكد الغاية من حياة النبي ﷺ وهي دين الله وتبليغ دعوته، فإذا ما تمت الغاية وانتهت انتهت معها حياته ﷺ، حيث كتب عليه الموت، وإذا كان قد مات فالله ﷻ حيٌّ لا يموت، وطباق السلب بين(**مات** و**ما مات**) أكّد معنى التصبر على ما نزل من بلاء، وعلى إخلاص العبادة لله وحده، وإذا مات فلماذا نجزع وهذا قدره، فقدره أداء الأمانة (**ومَا كَانَ إِلَّا مُرْسَلاً برسَالةٍ لِيُبلِغَهَا والحادثاتُ بمَرصَدِ**) وقد جاء القصر في هذا البيت قاطعاً مبيناً عن

---

١ – لما همّت همدان بالردّة قام فيهم عبد اللّه بن مالك الأرحبي، وكان من أصحاب النبيّ ﷺ، له هجرة وفضل في دينه، فاجتمعت إليه همدان، فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تعبدوا محمدا، إنما عبدتم ربّ محمد، وهو الحي الّذي لا يموت، غير أنكم أطعتم رسوله بطاعة اللّه. واعلموا أنه استنقذكم من النار، ولم يكن اللّه ليجمع أصحابه على ضلالة، وذكر له خطبة طويلة يقول فيها هذه الأبيات.. ينظر الإصابة:١٩٢/٤.

٢ – القيل:الملك بلغة أهل اليمن، أو من ملوك حمير خاصة، أو هو دون الملك الأعلى. تاج العروس: (قول).

٣ – غور كل شيء: قعره، والغور: المطمئن من الأرض. والمنجد: من نجد وهو ما ارتفع من الأرض. وكانوا يقولون: غار وأنجد، أي: نزل وصعد. ينظر الصحاح: (غور، نجد).

هذا المعنى الذي يفسر موقف كثير من شعراء المراثي في تصبرهم وسلواهم، ثم إن الرسول إذا بلغ رسالته كان الموت أكرم له من الحياة، فما عند الله خير له وأبقى، ومن اختاره الله ودعاه إلى لقائه فلا أسى عليه ولا خوف، وهذا معنى لطيف جعله الشاعر في جملة شرطية أخرى فقال:

ولمَّا قَضَى مِن ذَاكَ مَا كَانَ قَاضِياً وَلَمْ يَبْقَ شَيءٌ فِيهِ إِلحَادُ مُلْحِدِ

دَعَاهُ إِلَـيْهِ رَبُّهُ فَأَجَـابَهُ فَيَا خَـيْرَ غُـورِيّ وَيَا خَيْرَ مُـنْجِـدِ(١)

وقد عبّر عن الموت بالدعاء في تصوير تلك الفاجعة، فقد أراد الله ﷻ أن يكافئه بعد أن أتم دينه فدعاه إليه دعوة المثيب المجزل في الجود والعطاء. وفي مناداته دلالة على رفعته وعلوّ شأنه، وبيان عظم منزلته في الدارين، فكان ﷺ خير من كان على ظهر الأرض وخير من دفن فيها، قوّى ذلك وبيّنه الطباق بين **(غُـورِيّ، ومُـنْـجِـدِ)**.

وبيّن حال الناس بعد وفاته بهذه الصورة التشبيهية المؤكدة بأسلوب القصر، حيث شبه حالتهم بحالة من كان قبلهم، حيث تدرج في البيان، فبيّن أنهم فريقان، وبعد هذا الجمع والإبهام جاء التقسيم والبيان بقوله: **(كَـافِرٍ وَمُوَحِّـدِ)** والطباق بينهما أكدّ التمايز بين الفريقين.

يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى: " وبناء الكلام على الإيضاح بعد الإبهام من المزايا البلاغية في صياغة العبارة، وأمسها بطبائع النفس، فقد فطر الله الناس على التعلق بما يجهلون مما يلوح لهم منه طرف من العلم والانكشاف، أما ما لا يلوح منه هذا الطرف فإن الناس في غفلة عنه، والأسلوب المختار هو الذي يهتدي إلى فطرة هذه النفس، ويأتيها من جهتها، وحينئذ يمتلك زمامها وتسلس له قيادها"(٢).

---

١ – ينظر المراثي النبوية:٣٩٦.

٢ – خصائص التراكيب:٣٤٩.

وبيّن أنهم مستمسكون بدين نبيهم، مستمرون عليه، حالهم بعد وفاته كحالهم حين كان بينهم، قائمون بواجبهم تجاه دينهم ودعوتهم بدعوى غيرهم للإيمان به، علّهم يكونون سبباً في هداية من أراد الله له الاهتداء وذلك في قوله: **(وَنَحْنُ عَلَى مَا كَانَ بِالْأَمْسِ بَيْنَنَا مِنَ الدِّينِ نَهْدِي مَنْ أَرَادَ فَيَهْتَدِي)** ومضارعية الصيغة **(نَهْدِي، يَهْتَدِي)** تدلّ على تجدد واستمرار قيامهم بواجب دينهم ودعوتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى ثقتهم في تجدد واستمرار هداية الله لمن أراد له الاهتداء.

وهذه الأبيات تختلف عن الأبيات السابقة والتي تفيض بالحزن والألم، ولكن الشاعر هنا يظهر في صورة المتجلد المتعقّل للأمر، وأن النبيﷺ قد لبّى نداء ربه، وأنهم سيظلون على أمر الدعوة بعده.

ومن ذلك قول مجفنة بن النعمان العتكيّ: [1]

يَا عَمْرُو إِنْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ قَدْ أَتَى بِهِ الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ
فَلَقَد أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ وَأَنْفُنَا وَالرَّاقِصَاتُ إِلَى البَنِيَّةِ أَجْدَعُ [2]
فَقُلُوبُنَا قَرْحَى وَمَاءَ دُمُوعِنَا جَارٍ وَأَعْنَاقُ الْبَرِيَّةِ خُضَّعُ
يَا عَمْرُوإِنَّ حَيَاتَهُ كَوَفَاتِهِ فِينَا أَتُبْصِرُ مَا نُقُولُ وَتَسْمَعُ؟
فَأَقِمْ فَإِنَّكَ لَا تَخَافُ رُجُوعَنَا يَا عَمْرُ وُذَاكَ هُوَ الْأَعَزُّ الأمنعُ

ففي هذه الأبيات يبتدئ الشاعر بالنداء ويكرر **(يَا عَمْرُو)** ثلاث مرات، ففي الأولى يخبره بحزنهم وأساهم على فقد النبيﷺ، وأتبع النداء بالشرط وكنّى عن الموت بقوله:

---

١ – كان شاعر الأزد، وكان النبي ﷺ أمّر عليهم عمرو بن العاص، فلما مات وارتدت العرب فخشي عمرو بن العاص أن يرتدّوا فاستأذنهم في الرجوع إلى المدينة، فقال له مجفنة هذه الأبيات. ينظر الإصابة:٥/٥٧٦.

٢ – الراقصات: الإبل، وهذا قَسَم بهن. والبنية: اسم من أسماء مكة. ينظر معجم البلدان:١/٥٠٢ (باب الباء والنون وما يليهما).

(قَدْ أَتَى بِهِ الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ)، ويأتي الجواب مؤكداً بأكثر من مؤكد(اللام، وقد، والقسم بالراقصات) ليبين عظم مصابهم وما حلّ بهم فيقول: **(فَلَقَد أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ وَأَنْفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ إِلَى البَنِيَّةِ أَجْدَعُ)** فكنّى بجدع الأنف عن سوء حالتهم وضعفهم وهوانهم، فالأنف هو الأعلى والأظهر في الوجه، وهو مظهر من مظاهر الشمم والإباء في الإنسان، وإذا تم قطعه صار ذلك دليلاً على شدة الضعف والخذلان، وتعريف الأنف بالإضافة لضميرهم **(نَا)** يدل على أن أثر تلك المصيبة وذاك الحزن قد عمّ وشمل كل قومه، ومن ثمَّ وجدنا جريان الدموع من الأعين وسيلانها **(فَقَلُوبُنَا قَرْحَى وَمَاءَ دُمُوعِنَا جَارٍ وَأَعْنَاقُ الْبَرِيَّةِ خُضَّعُ)** حيث كنّى عن كثرته بجريانه، وعن ذلهم وضعفهم وانكسارهم بسبب موت نبيهم بخضوع أعناقهم، وليس ذلك خاصاً بهم بل عمّ وشمل كل المخلوقات حولهم.

وفي النداء الثاني يهدئ من روعه، فهم صابرون ثابتون مستمسكون بدينه، مؤدون ما عليهم من واجبات وحقوق كما كانوا يفعلون في حياة النبيﷺ أكدّ ذلك وبينه التشبيه في قولهم: **(إِنَّ حَيَاتَهُ كَوَفَاتِهِ فِينَا)** فهم لن يحيدوا عن دينهم، وفي جعل البصر للقول في قوله: **(أَتُبْصِرُ مَا نُقُولُ وَتَسْمَعُ؟)** دلالة على صدق قولهم وأنهم يفعلون ما يقولونه، وكأنه لا وقت بين قولهم وفعلهم، فأفعالهم تسبق أقوالهم، والناس يسمعونهم بأعينهم، وزاد في التوكيد الاستفهام التقريري في قوله: **(أَتُبْصِرُ مَا نُقُولُ وَتَسْمَعُ؟)**.

وكرر النداء الثالث ليجدد لعمرو بن العاصرضي الله عنه الولاء وحسن الجوار، وكأن تكرار **(يَا عَمْرُو)** في هذه المواضع دليل ثقة من الشاعر فيما يقوله، وكأنه يؤكد بتكراره هذا على صدق قوله، ومذكراً به كلما تباعد الكلام واختلفت معانيه، وكأن هذه العبارة المكررة فاصلة في الكلام ذاتَ تأثير فَنِّي جماليّ

بديع مستطرف، كأنّها أعلام ترفرف على مفاصيل الأبيات، أو لوحة مكرَّرة على مقاطع من الطريق.[١]

ومن ذلك قول مسروق بن ذي الحارث الهمدانيّ: [٢]

قُلْتُ وَالدَّمْعُ كَالْجُمَانِ عَلَى النَّحرِ وَقَدْ لَاحَ فِي السَّمَا الْعَيُّوقُ[٣]

كُلَّ أَمْرٍ وَإِنْ تَعَاظَمَنِي الصَّبْـــــــرُ عَلَيْهِ بَعْدَ النَّبِيّ دَقيقُ

وَجَوادًا كُنَّا نَبَذُّ بِهِ النَّا سَ فَهَذَا جَوَادُنَا مَسْبُوقُ

وَبِهِ كَانَتِ النَّجَاةُ مِنَ النَّا رِ فَلَمْ يُرْزَ مِثْلَهُ مَخْلُوقُ

فَعَلَانِي بَعْدَ الهُمُومِ هُمُومٌ وَبِقَلْبِي بَعْدَ الْحَرِيقِ حَرِيقُ

قُلْتُ وَالنَّفْسُ لِلْبَلَاءِ عُزُوفٌ أَيْنَ يَهْوِي بِكَفِّهِ الْمَخْنُوقُ [٤]

لَا إِلَى أَيْنَ إِن سَأَلتَ سِوَى الْخَنْقِ وإِنِي بِحَتْفِهِ مَخْنُوقُ

لَا يَرُدُّ النَّبِيَّ ذَاكَ عَلَى النَّا سِ وَفِي طُولِ حُزْنِنَا تَخْنِيقُ

مَالِكُ الْخَيرِ قَدْ يُنَكِّرُ منّا كُلَّ شَيْءٍ فَعَظْمُنَا مَعْرُوقُ

كُلُّ خَيْرٍ بَعْدَ النَّبِيّ قَلِيلٌ غَيْرَ مَذْقٍ وَشُرْبِهِ المَمْزُوقُ

---

١ – ينظر البلاغة العربية:٢/٧٢.لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

٢ – لما بلغ ابن ذي المشعار الهمدانيّ، وكان ملك ناحيته– أن قومه لما هموا بالردة قام فيهم خطيبا فحرضهم على الثبات على الإسلام، فقام إليه مسروق بن ذي الحارث الأرحبي، فقال: أيها الملك، إنه لا يبلّغ عنك قريشا إلا رجل من قومك مثلي، فابعثني إلى خليفة رسول الله ﷺ، ففعل، فقال: يا خليفة رسول الله، إن بعدي أقواما أسلموا لله لا للناس، وأطال في خطبته، وأنشد أبياتا منها هذه الأبيات. ينظر الإصابة:٦/٢٣١. ومنح المدح:١٦٤،١٦٣.

٣ –العيوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا إذا طلع علم أن الثريا قد طلعت. ينظر تاج العروس(:عقي).

٤ – النفس العزوف: هي التي تأبى الأشياء وتنصرف عنها. (لسان العرب: عزف)

ففي هذه الأبيات يرمي الشاعر إلى التشويق وتهيئة السامع وذلك بتأخير ذكر الوفاة عن مفتتح قصيدته، وفي هذا النوع من الافتتاح حمل للمخاطب على التمهل وإصغاء السمع، لأن نفسه تهفو إلى معرفة ما سيذكر عقب تلك الديباجة المحبَّرة، فالصورة التي في مستهل مرثيته:

(قُلْتُ وَالدَّمْعُ كَالْجُمَانِ عَلَى النَّحْـرِ وَقَدْ لَاحَ فِي السَّمَا الْعَيُّوقُ) صورة مركبة شائقة، لا تنال إلا بشيء من التروي، حتى تتجمع في ذهن المتلقي تفاصيلها، حينها سيدركها، ويدرك معاناة الشاعر مما يجده من فقد النبي ﷺ ولسوف تتوق نفسه للاستماع إلى بقية المرثية التي وقعت في نفسه موقعاً حسناً..

فالعيوق: كوكب يطلُع مع الثريا، يضرب به المثل في البعد، وبه كانوا يعرفون القبلة، وكأن الشاعر يرمز بهذا الرمز إلى قرب كل شيء وانقلاب أحواله، فقد كانوا يقولون: أبعد من العَيُّوق! فهذا هو الكوكب البعيد يلوح أمام ناظري الشاعر، فموت النبي ﷺ والذي كان مستبعداً ها هو قد صار حقيقة، ووقع ما لم يكن في الحسبان، وهذه سنة الله في خلقه.

وفي **(العَيُّوق)** رمز إلى رفعة النبي ﷺ وعلوّ شأنه، وكما أنه يعرف به القبلة فهذا يدل على آثار الرسول فيهم، فهو الذي علمهم الصلاة، ودلّهم على الله وهداهم إلى الدين، فإذا كتب عليه الموت وهو مَنْ هو عند ربه وعند الناس، فإن كل مصيبة بعده وإن جلَّت تهون.[1]

ويبين فضله وشجاعته فيصوره بالجواد القوي الشجاع، حيث كان سبباً في نصرتهم وغلبتهم **(وَجَوادًا كُنَّا نَبَذُّ بِهِ النَّاسَ)**، ويكني عن عجزهم وضعفهم بعد موته ﷺ بقوله: **(فَهَذَا جَوَادُنَا مَسْبُوقُ)** والطباق بين الأمرين يبين شدة الفارق بينهما وعظم مصابهم.

١- ينظر جمهرة الأمثال:٢٣٨/١، والمراثي النبوية:٤٣٤، ٣٧٦.

وبه لا بغيره كانت نجاتهم من النار، وذلك بهدايتهم لطريق الطاعة والعبادة والبعد عن المعاصي والتي تكون سبباً في دخول النار، حيث عبر عن الكفر والمعصية بالنار لأنه مؤدٍ إليها.

ويشعر تكرار (هموم وحريق) في قوله: **(فَعَلَانِي بَعْدَ الهُمُومِ هُمُومٌ وَبِقَلْبِي بَعْدَ الْحَرِيقِ حَرِيقُ)** بدوام ذلك وثبوته لديه، فالهمّ قد علاه ولازمه والحريق سكن قلبه مما يدل على شدة ألمه وحزنه على فراقه وملازمة تلك الحالة له.

ويكنّي عن نفسه وعن حالته التي صار إليها بقوله: **(قُلْتُ وَالنَّفْسُ لِلْبَلَاءِ عُزُوفٌ أَيْنَ يَهْوِي بِكَفِّهِ الْمَخْنُوقُ)** حيث يعجب من نفسه وكيف له أن يمد يده لطعام أو شراب فقد زهد في الدنيا وشهواتها، وعزفت نفسه عن كل شيء بسبب تلك المصيبة التي أحلت به وهي فقده للنبي ﷺ فصار كالمخنوق الذي يعيش في ضيق وكرب، ولا يجد سبيلاً في الدنيا بعد موته، ومن ثَمّ فهو ضائق مغموم، وقد أكد ذلك بأكثر من مؤكد في قوله: **(وإِنِي بِحَتْفِهِ مَخْنُوقُ)**، وتقديم الجار والمجرور **(بِحَتْفِهِ)** وما فيه من تخصيص يدل على أن خنق الشاعر إنما هو بسبب موت النبي ﷺ لا غير، مما يدل على شدة حزنه وتعلقه به. وفي تكرار **(مخنوق** و**الخنق** و**التخنيق)** ما يدل على سوء حالته النفسية وأثر وقع المصيبة عليه، وشدة القرحة التي يجدها، ويريد من المخاطبين إدراك مدى الخسارة التي حلت بهم بسبب هذا الفقد، فقد هزلوا وضعفوا وقد كنّى عن ذلك ببروز عظامهم بقوله: **(فَعَظْمُنَا مَعْرُوقُ)**، ومهما عظم الخير وكثر بعد موت النبي فهو قليل، فقد فقدوا من كان سبباً في البركة والنماء.

وبهذا الحوار مع نفسه يروّح عن حرقة قلبه، فتجاذب أطراف الحديث بالحوار يهوّن من لواعج الصدور، ويفرّج عن الكربات، ويمكن تسميته بـ

(حديث النفس) وهو حديث فيه مَسَحات مما يُطلق عليه في النقد الحديث (أسلوب تيار الوعي)[١] فيقول:

قُلْتُ –وَالنَّفْسُ لِلْبَلَاءِ عُزُوفٌ: أَيْنَ يَهْوِي بِكَفِّهِ الْمَخْنُوقُ؟

ثم تجيب نفسُهُ نفسَهُ بأن الحزن لا مفر منه، ولا من انقباضة الصدر:

لَا إِلَى أَيْنَ– إِن سَأَلتَ– سِوَى الْـــــــخَنْقِ، وإِنِي بِحَتْفِهِ مَخْنُوقُ

ثم يأتي صوت منه كأنه صوت ثالث، أو كأنه الصوت الأول الذي سأل، فيعود بالحديث من الشُّرود إلى العقل وهو يقول:

لَا يَرُدُّ النَّبِيَّ ذَاكَ عَلَى النَّا سِ، وَفِي طُولِ حُزْنِنَا تَخْنِيقُ.

وقد تآزرت الكناية مع غيرها من الألوان البلاغية في تجسيد حزنهم وبيان شدة ألمهم بفقد نبيهم، وعبرت عن حالتهم النفسية، وما يجدونه في صدورهم المكلومة، وجاءت عناصرها من بيئتهم المحيطة بهم.

ومن ذلك قول عَدِيّ بْن حَاتِمٍ: [٢]

١- يعد تيار الوعي نوعًا من كتابة الحوار الداخلي للشخص، لذلك غالبًا ما تكون الجمل مفككة والأفكار غير مترابطة يكون من الصعب معها متابعة النص، أو المشاعر التي تكون متداخلة في النص. ينظر النقد الأدبي الحديث:٥١٨، د/محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،١٩٩٦م. والمراثي النبوية:٤١٩.

٢ – عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أمير صحابي من الأجواد العقلاء، كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، وقام في حرب الردّة بأعمال كبيرة، قال ابن الأثير: خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم، وكان إسلامه سنة ٩ هـ–، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب، وفقئت عينه في صفين، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب به المثل بجوده، قيل: عاش أكثر من مائة سنة وتوفي بالكوفة سنة ٢٨ هـ–.

(إمتاع الأسماع:١٤/ ٢٣٤، الروض الأنف: ٣٦٠/٤، خزانة الأدب: ١/ ٢٨١، الأعلام:٤/ ٢٢٠) .

أَلا إنَّ هَذَا الدِّينَ أَصْبَحَ أَهْلُهُ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ بَعْدَ مُحَمَّدِ[1]
وَلا ذَاكَ مِنْ ذُلٍّ وَلا مِنْ مَخَافَةٍ عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا لإِنْجَازِ مَوْعِـدِ
وَلَكِـنْ أُصِبْـنَا بِالنَّبِيِّ فَـلَيْلُنَا طَـوِيلٌ كَـلَيْلِ الأَرْمَـدِ الْمُتَلَدِّدِ[2]

فقد طغى الحزن والألم على قلب الصحابي وأحاط به فافتتح مرثيته بذكر حرف التنبيه (**أَلا**) حشداً للنفوس وجذباً لانتباه السامع لما سيذكره من البلاء الذي ألمّ به وزلزل قلبه، وهو موت النبي ﷺ وقد أكّد الخبر بأكثر من مؤكد وصور حالة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ وما هم فيه من هلع وجزع، بحالة من يترصده حدّ السيف، فهم في خوف وحذر شديد، وإذا كانت تلك حالتهم إلا أن الدين لا خوف عليه فهو باق لا محالة، وأمر الله ماض لا مبدّل لحكمه ولا راد لقضائه.

ويصور حالهم وأثر وقع المصيبة عليهم وما هم فيه من حزن وألم وحيرة وتشتت، حيث صار ليلهم طويلاً بحال ليل من رمضت عيناه فصار يتقلب يميناً ويساراً، حيث يتقلب في الظلمات مع ما يجده من ألم وحزن.

وفي تشبيه حالهم بحال الأرمد وليس الأعمى دلالة على أن ما أصابهم – مع عظمه– عارض – وإن طال– وهم مستمسكون بهذا الدين ولن يحيدوا

١– لما مات النبي ﷺ همت قبائل طيء أن يرتدوا عن دين الإسلام، فقام سيدهم عدي بن حاتم الطائي، فقال: (يا معشر طيء، إنكم إن أقمتم على دين الإسلام أصبتم الدنيا والآخرة، وإن رجعتم عنه خسرتم الدنيا والآخرة، واستغنى الله عنكم، وعلمتم أن الله تبارك وتعالى قد قبض نبيكم محمد، وهذا خليفته قد قام بأمره في أمته، فوفروا عليه صدقاتكم ولا تمنعوها، فإن منعها يمحق المال ويقرب الأجل، وخفوا إلى قتال أهل الردة من أسد وغطفان وفزارة، فإن الخليفة قد عزم على غزوهم، فإنهم أقيالهم في الجاهلية، وشجعانهم في الإسلام، وأنتم اليوم خير منكم أمس، والسلام) .قال: ثم أنشأ عدي بن حاتم يقول هذه المرثية.. ينظر: كتاب الردة:٦٤، لمحمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ)، ت: يحيى الجبوري، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

٢ – المتلدد: المتبلد المتحير والمتلفت يميناً وشمالاً. القاموس المحيط: (لدد) .

عنه، باذلين في سبيله كل غالٍ ونفيس، فطريقهم واضح لهم مع ما أصاب أعينهم من رمد، وإصابتهم ظاهرة يسهل عليهم السير مع وجودها ومع الوقت يضعف أثرها، وذلك بخلاف الإصابة الباطنة والتي يصعب علاجها وقد يطول، وفي ذلك إيضاح وبيان لما يجده الشاعر في نفسه، وما يعانيه من حزن وألم وقلق جعل القوم حيارى في هذا الظلام بعد أن أفل نور النبوة.

وفي قوله: **(وَلَكِنْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ)** إيجاز يتطلبه المقام حيث حذف المضاف والتقدير: بموت النبي. فشدة ألمهم وحزنهم جعلتهم يذهلون فموته الذي دهاهم وجعلهم حيارى وليس هو. كما أن هذا الحذف يظهر شدة حب الصحابة للنبي ﷺ ولم يريدوا إضافة لفظ الموت إليه.

ومن ينظر لهذه الأبيات يجد فيه (طبائع النثر)، فقد أنشدت في مقام الخطابة، وقد بنيت بناءً منطقياً لا تقديم فيها ولا تأخير، وسهولتها وطول جملتها. وإننا لو لم نفصل بين الشطرين وقرأناها كأنها قطعة واحدة لساغ لنا ذلك، ولأمكن عدّها في النثر من غير غضاضة، وقد خرجت واضحة سلسة موافقة لمقام الخطيب، وقد استحب فريق للشعر أن يخرج خروج النثر سهولةً وانتظاماً، لأنه أيسر على المتلقي، وأقرب إلى ما اعتاده الناس في كلامهم، وهذا النمط من الشعر لعله أكثر ملاءمة لطبقة العامة منهم دون الخاصة.[١]

ومن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: [٢]

أَرِقْت فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ وَلِيلُ أَخِي الْمُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ
وَأَسْعَدَنِي الْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلّتْ عَشِيّةَ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرّسُولُ
وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمّا عَرَاهَا تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ

١- ينظر عيار الشعر:٨٩. والمراثي النبوية:٤١٧.

٢ - ينظر إمتاع الأسماع:١٤/٦٠٣، والروض الأنف:٧/٥٩٨.

فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتّنْزِيلَ فِينَا يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ نَفُوسُ النّاسِ أَوْ كَادتْ تَسِيلُ
نَبِيّ كَانَ يَجْلُو الشّكّ عَنّا بِمَا يُوحَى إلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِينَا فَلَا نَخْشَى ضَلَالًا عَلَيْنَا وَالرّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
أَفَاطِمُ إنْ جَزِعْت فَذَاكَ عُذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي، ذَاكَ السّبِيلُ
فَقَبْرُ أَبِيك سَيّدُ كُلّ قَبْرٍ وَفِيهِ سَيّدُ النّاسِ الرّسُولُ
صَلَاةُ اللهِ مَنْ رُبِّ رَحِيمٍ عَلَيْهِ لَا تَحولُ وَلَا تَـزُولُ

حيث ابتدأ الصحابي مرثيته وافتتحها بذكر خبر وفاة النبي ﷺ وأثر الحزن والألم الذي أحاط بهم، حيث أحاطت المصيبة به فلم يهنأ بنوم، وأصابه الأرق فلم يستطع أن يغمض جفناً، وفي هذا الابتداء تنبيه للغرض الذي من أجله قيلت هذه المرثية وإسراع إلى ذكره، وجاء بأسلوب خبري غير مؤكد **(أَرِقْت فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ وَلِيلُ أَخِي الْمُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ)** فمشاعرهم وعواطفهم ملتهبة ظاهرة، تمكن الحزن والألم منهم، لا يحتاجون مع ذلك توكيداً لها فالمصيبة قد عمّت وطمّت، وصاحب المصيبة يطول ليله وذلك فيما يظهر للمصاب وإلا فهو على هيئته لا يتغير، لكن أوقات الشدائد تستطال؛ لأن الشخص يتمنى زوالها وكل ما يتمنى زواله يظهر طوله. وكنّى بـ **أَخِي الْمُصِيبَةِ** عن ملازمتها له. وصور البكاء في صورة كائن حي تكون منه الإعانة وذلك في قوله: **(وَأَسْعَدَنِي الْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ)** فجعل في بكائه سلواه وتخفيفاً عمّا أصابه، وهذا قليل بجانب تلك المصيبة التي حلّت بالمسلمين عامة، فقد عظمت مصيبتهم وقت إخبارهم بنبأ وفاته ﷺ، وقد تجاوزهم الحزن فعمّ وشمل الأرض التي يسكنونها، وللمبالغة في بيان شدة حزنها وألمها على فراقه تكاد أن تميل جوانبها، مع ما فيها من شدة وقوة وتماسك فكيف بالإنسان؟! وفي ذكر **(الليل، والعشيّ، والضحى)** ما يدل على أن الحزن قد شمل جميع أوقاتهم وعمّ ما حولهم.

ومما هوّل من شأن تلك المصيبة وعظّم فقدان خبر السماء وذلك بانقطاع الوحي، ومضارعية الصيغ في قوله: **(يَرُوحُ** وَ **يَغْدُو** و **يَجْلُو** و **يَقُولُ** و **يَهْدِي** و **نَخْشَى)** دلّت على تجدد واستمرار الوحي بواسطة جبريل –عليه السلام– حيث كان يزيل الشك وما يلتبس عليهم ويهديهم ويعصمهم من الوقوع في الخطأ بالكتاب والسنة، ومن ثَمّ استحق أن تسال عليه دماء الخلق لا دموعهم وقد أكد ذلك وبينه الطباق بين**(يَرُوحُ** وَ **يَغْدُو، يَهْدِي** و **ضَلَالًا)**.

ومخاطبة السيدة فاطمة – رضي الله عنها– تلك الثكلى في قوله: **(أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْت فَذَاكَ عُذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي، ذَاكَ السّبِيلُ)** يشير إلى مشهد الحزن والألم ويذيقنا من المرارة التي تجرعتها يوم فراق أبيها، ويوحي بمدى التسليم لقضاء الله وقدره، فقد كتب الموت على جميع المخلوقات، قوّى ذلك الطباق بين **(جَزِعْت** و **لَمْ تَجْزَعِي)**. ولا يخلو الجمع بين النقيضين في وقت الشدة والألم من العقل والحكمة، حتى لا تنساق النفس خلف العواطف الملتهبة، فلربما ضلت طريقها.

وقد ختم مرثيته بالدعاء للنبي ﷺ بالرحمة والمنزلة العلية الدائمة التي لا تنفك عنه ﷺ وذلك في قوله: **(صَلَاةُ اللهِ مَنْ رُبِّ رَحِيمٍ... عَلَيْهِ لَا تَحولُ وَلَا تَزُولُ)** وما ختم المرثية بالدعاء له إلا ليظل ذكره ﷺ باقياً في أذهان الناس وعلى ألسنتهم فيصلون عليه ويدعون له.

الخـــاتـمة

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله وصبحه وسلم.

وبعد:

فقد عشتُ في رحاب مراثي الصحابة ﷺ للنبيﷺ والمعاني التي تناولوها، فقد امتازوا بحسٍّ مرهفٍ وملكةٍ قويةٍ في اختيار الصورة والأسلوب الملائم للمقام والأقدر على بيان المعنى ولحظت أنها تحوى كثيراً من الخصائص واللطائف البلاغية، وكان منها ما يلي:

١- اتسمت المراثي بالوحدة الموضوعية، فهي تدور حول رثاء النبي وذلك بالبكاء عليه وفدائه، وعدم استحقاق البكاء على أحد بعده، وأثر تلك الفجيعة على المسلمين، وما حدث للمنافقين من ردة وإظهار الشماتة بعد موته.

٢- قلة مجيء الأساليب الإنشائية في مراثي الصحابة، والتي يكون لها عظيم الأثر في إلهاب المشاعر، وكذا قلة مجيء الخبر مؤكداً؛ وذلك لأن العواطف مشتعلة والنفوس متأثرة، وحزنهم على فقد النبي واضح وظاهر للعيان، ولا يحتاج توكيداً.

٣- تعددت المعاني في مراثي الصحابة للنبي ﷺ لأن نيل الدين بأذى بعد وفاته إيذاء له نفسه، والإغلاظ على الشامتين يُعَدّ وفاءً للنبي وقياماً بحقه ومزجه بالرثاء لا يعدله التباكي عليه.

٤- جاءت مراثي الصحابة موجزة فلم تطل، وذلك لشدة وقع المصيبة عليهم، ولطبيعة غرض الرثاء نفسه، كما أن أغلبهم لم يكونوا شعراء أصحاب صنعة.

٥- كثر الاعتراض في مراثي الصحابة تعظيماً وتبجيلاً للنبي ﷺ، وللحث على محاربة الباغين والمرتدين والشامتين، ولبيان ثباتهم على الحق ونصرته مهما تكلفوا ذلك من مشاق وتضحيات..

٦- جاء التعجب في مراثي الصحابة دالاً على شدة المرارة والحزن الذي ألمّ بهم لفقد النبي ﷺ، ولم يجدوا من الكلام ما يترجم حزنهم وما تكنه صدورهم، ويعبر عنه تعبيراً دقيقاً، ومن ثمّ كان تعجبهم.

٧- جاءت ألفاظ المراثي النبوية في الأعمِّ الأغلب واضحةٌ موحية، ولم يغرق أصحابها في الخيال ، بل كان الخيال في شعرهم بالقدر الذي تستحسنه الأذواق وتتفق على قبوله. ويعود ذلك إلى تأثر لغتهم بأسلوب القرآن الكريم.

٨- جاءت المطابقة في مراثي الصحابة لبيان المفارقة بين حياة النبي وموته، وجاءت سلواهم في حياة الإسلام وبقائه وإن كان النبي قد مات فالله تعالى حي باق، فليس من الموت فرار.

٩- جاء التشبيه في المراثي لبيان صورة المرثي، ويعد من الوسائل البلاغية في تجسيد الصورة الرثائية، وجاءت الاستعارة لبيان صورة الموت وأثره في النفوس؛ لأنها هي التي تلائم ثورة العاطفة ووحدة الوجدان.

١٠- كثر أسلوب الشرط في مراثي الصحابة لما وجدوا فيه من بحبوحة نفَّسوا فيها عن كربتهم، فجملة الشرط حمَّلوها أساهم، وجملة الجواب حمَّلوها موقفهم من هذا الأسى.

١١- كانت الطبيعة وعناصرها مكوناً رئيساً في رسم الصورة في المراثي النبوية حيث كسفت الشمس وخسف القمر لموته بل إن مظاهر الطبيعة اهتزت لفقده، فأخذت تنزف العبرات حسرات عليه.

١٢- ختمت معظم المراثي بالدعاء له ﷺ؛ ليظل ذكره باقياً في أذهان الناس وعلى ألسنتهم فيصلّون عليه ويدعون له، وفيه بيان لتعلق الصحابة ﷺ بالدار الآخرة، وما يرجونه للنبي بعد وفاته عند ربه.

١٣- من المعاني التي كثر الحديث عنها بكاء الأرض والسماء على فراق النبي ﷺ؛ تأثراً بما جاء في القرآن الكريم، وكان ذلك مظهراً من مظاهر

الحزن عليه لم يغب عن الصحابة في رثائهم له. وفي جميع المواطن قدَّم الصحابة بكاء الأرض على بكاء السماء لأنها الألصق بهم والأقرب إليهم. وبعد ... فهذا هو جهد المقلّ، فإن كنت قد وفقت فلله الفضل والمنة، وإن كان غير ذلك فالله أسأل المغفرة على تقصيري، والسداد والتوفيق في عملي، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المراجع

- القرآن الكريم.

١- إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر في زيارة النبي ﷺ، لعبد الصمد بن عبد الوهاب بن أبي الحسن محمد بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أمين الدين أبو اليمن بن عساكر الدمشقي نزيل مكة (المتوفى: ٦٨٦هـ)، ت: حسين محمد علي شكري، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة: الأولى. بدون.

٢- أساس البلاغة، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ت/علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

٤- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، ت: علي محمد معوض- عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٥- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تح د/محمد عبد المنعم خفاجي، د/عبد العزيز شرف، بيروت، الطبعة الأولى١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٦- الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة، لمحمد بن علي الجرجاني، ت د/عبد القادر حسين، مكتبة الآداب بالقاهرة،١٩٩٧م.

٧- الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ – ١٤١٥ هـ.

٨- الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢ م

٩- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، لسليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو الربيع (المتوفى: ٦٣٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ.

١٠- الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للحسن بن أحمد الهمداني، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء،١٤٢٥هـ.

١١- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، ت. د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط٣، بيروت.

١٢- البديع، لعبد الله بن المعتز، دار المسيرة، بيروت، ط٣، ١٤٠٢هـ.

١٣- البلاغة العربية. لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

١٤- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ، الناشر: دار الهداية.

١٥- تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، ط٢ – ١٣٨٧ هـ.

١٦- تاريخ النقد الأدبي عند العرب. المؤلف: دكتور إحسان عباس (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٨٣م.

١٧- التصوير البياني عند شعراء الرسول، للباحث/طاهر عبد المنعم علي أبو يوسف، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية – بإيتاي البارود– جامعة الأزهر.

١٨- التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا]، المؤلف: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ)، تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٩- تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٢٠- جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ -١٩٧٢م.
٢١- جمهرة الأمثال، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.
٢٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر. ط١،١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م.
٢٣- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى، ط٧، الناشر/ مكتبة وهبة، القاهرة.
٢٤- دراسات في النص الشعري العباسي، د/عبده بدوي، دار الرفاعي للنشر والتوزيع- الرياض، ط٢،١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م.
٢٥- دلالات التراكيب، دراسةً بلاغيةً. د/محمد محمد أبو موسى، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.
٢٦- ديوان الباكيتين الخنساء وليلى الأخيلية، شرح: د. يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

٢٧- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٢٩م.
٢٨- رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي، عبد الله عبد الرحيم السوداني، ط المجمع الثقافي أبو ظبي ١٤٢٠هـ /١٩٩٩ م.
٢٩- الردة، المؤلف: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ)، المحقق: يحيى الجبوري، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
٣٠- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، المؤلف: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧هـ)، ت: عبد العزيز الميمني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٣١- شرح النووي لأبى زكريا يحيى بن شرف بن مرسى النووي، ت ٦٧٦ هـ طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت. ط٢ ١٣٩٢ هـ .
٣٢- شعر الرثاء في صدر الإسلام. د/ مصطفى عبد الشافي الشوري، دار نوبار للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٣٣- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ت ٢٥٦هـ ، تح د/ مصطفى ديب أغا، دار ابن كثير _ اليمامة _ بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ _ ١٩٨٧م.
٣٤- الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
٣٥- الطبقات الكبرى، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٣٦- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٣٧- عيار الشعر، لمحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي، أبو الحسن (المتوفى: ٣٢٢هـ)، ت: عبد العزيز بن ناصر المانع، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة.
٣٨- قضايا في النقد والشعر، د/يوسف حسين بكار، دار الأندلس، بيروت، ط١ ١٤٠٤هـ.
٣٩- لسان العرب لابن منظور، تح/ عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، ط. دار المعارف بالقاهرة.
٤٠- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٤١- المجتبى من السنن، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط٢، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م.
٤٢- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: جمعها/محمد حميد الله،دار النفائس، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ.
٤٣- المحبر، المؤلف: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٤٤- مراثي القادة المسلمين حتى نهاية العصر الراشدي:٣١، د/طراف طارق النهار، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠١٨م.

٤٥- المراثي النبوية في أشعار الصحابة، للباحث/ محمد شمس عقاب، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.
٤٦- المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٤١١ – ١٩٩٠م.
٤٧- معجم البلدان، المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥ م.
٤٨- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٤٩- معرفة الصحابة، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، ت: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، ط١ ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.
٥٠- مفتاح العلوم، المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ت: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٥١- مقاييس اللغة لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح/عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء الكتاب العربى، الطبعة الأولى ١٣٦٨ هـ .
٥٢- منح المدح. لابن سيد الناس محمد بن محمد بن عبد الله، ت/ عفت وصال حمزة، دار الفكر، دمشق، ط١/١٤٠٧هـ.

٥٣- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المؤلف: أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر.
٥٤- النقد الأدبي الحديث، د/محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،١٩٩٦م.
٥٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٥٦- الوافي بالوفيات، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت،١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث.	٢٩٩
المقدمة.	٣٠١
التمهيد: المراثي والمعاني المتداولة.	٣٠٤
التعريف بالمراثي.	٣٠٤
التعريف بالصحابي.	٣٠٥
المعاني المتداولة في مراثي الصحابة.	٣٠٦
المبحث الأول: بكاء الأرض والسماء على موته ﷺ.	٣٠٨
المبحث الثاني: فداؤه بالأنفس والأموال والأولاد.	٣٢١
المبحث الثالث: تمني الموت قبله.	٣٢٥
المبحث الرابع: إظهار المنافقين والكفار الشماتة بعد موته.	٣٣١
المبحث الخامس: بكاء الصحابة عليه وعدم استحقاق البكاء على أحد بعده.	٣٤٢
المبحث السادس: أثر فجيعة موته على الصحابة.	٣٥٤
الخاتمة.	٣٧٠
فهرس المراجع.	٣٧٣
فهرس الموضوعات.	٣٨٠